﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٧﴾﴾

شرح الكلمات:

أزلَّهما: أزله يعني أزلقَهُ؛ حمله على الزلل. والزَّلة في الأصل استرسال الرِّجل من غير قصد. وقيل للذنب بغير قصد زلةٌ تشبيها بزلة الرجل."المفردات" أزلَّه: حمله على الزلل (اللسان).

عنها: عن حرف جر، ويؤدي عشرة معان منها التعليل نحو: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة" (الأقرب والمعنى).. أي بسبب وعد. فمعنى ﴿أزلهما الشيطان عنها﴾ حملهما على الزلة بسببها، أي بسبب الشجرة.

اهبطوا: هبط من الجبل: نزل منه. هبَطَه: أنزله. هبط بلدا: دخله. وهبَطَه بلدا: أدخله فيها. هبطَ السوق : أتاها. وهبط من موضع إلى موضع آخر: انتقل (الأقرب). فمعنى اهبطوا منها أي انتقلوا إلى مكان آخر؛ اخرجوا.

مستقرٌّ: استقر بالمكان: ثبتَ وسكنَ. المستقرُّ: موضع الاستقرار (الأقرب).

متا ع: كل ما يُنتفع به من الحوائج كالطعام والبز "الثياب" وأثاث البيت، والأدوات والسلع؛ وقيل ما ينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها ما سوى الفضة والذهب؛ وعُرفا: كل ما يلبسه الناس ويبسطه. وفي (الكليات): المتاع والمتعة: ما يُنتفع به انتفاعا قليلا غير باق بل ينقضي عن قريب. وأصل المتاع ما يُتبلَّغ به من الزاد: ويأتي المتاع اسما بمعنى التمتيع (الأقرب).

حين: الحين وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر. وقيل: الدهر؛ المدة (الأقرب).

التفسير: يُحتمل أن يكون ضمير المؤنث في قوله تعالى ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ راجعا إلى الجنة أو إلى الشجرة. فإذا كان مرجعه إلى الجنة فالمعنى أن الشيطان أبعد آدم عليه السلام عن الجنة، أو أن حالة الجنة تغيرت بسبب خداع الشيطان فصارت موضع أذى لهم. وأما إذا كان مرجع الضمير إلى الشجرة فالمعنى أن الشيطان اتخذ الشجرة ذريعة لخداع آدم وأزلقه من مكانه.

وكما بينا في شرح الكلمات أن أزَّلَه تعني جعله يتزلق بدون إرادة منه. فالمعنى الصحيح أن الشيطان أزل قدم آدم عن طريق الشجرة بدون عزم من آدم عليه السلام. فكل ما حصل كان بالخداع والمكر من جانب الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ يمكن أن يعني أن الشيطان أخرجهما مما كانا عليه من حالة الأمن والاطمئنان؛ أو من الجنة التي كانا فيها. ولكن المعنى الأول هو الأصح، لأنهما أُمرا بالخروج من الجنة بعد ذلك. ولو أخذنا بالمعنى الثاني فيعني قوله "فأخرجهما" أي جعلهما مستحقين للخروج من الجنة.

وقوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ أي اذهبوا، فقد وقع العداء بينكم، ولا تحسبُنَّ أن هذا العداء سوف ينتهي هنا.. بل سوف يستمر بينكم في المستقبل أيضًا، ولسوف يسعى الشيطان لشن هجوم كهذا عند مبعث كل نبي من الله.

وقوله تعالى ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ يعني: سوف تمكثون في هذه الأرض وتنتفعون من أسباب العيش فيها. فعليكم بالحذر لأنه ليس أمامكم مفر إلا أن تعيشوا مع ذراري الشيطان. ثم إن هذه الحياة ذريعة مؤقتة بغرض التزود للحياة الآخرة، فلا تتغافلوا وتتشاغلوا عن هذا الهدف وتنهمكوا في جمع متاع هذه الحياة الدنيا.

وتفيد هذه الآية الكريمة عدة أمور جديرة بالانتباه:

الأمر الأول: أن من مقتضى المجتمع البشري أن يجتمع فيه المؤمن والكافر في مكان واحد ويقيما فيه معا، وأن العداء بين الخير والشر قائم لا ينفك، فلذلك كان على المؤمنين الصالحين أن لا يألوا جهدا في دفع الشيطان وشروره عن أنفسهم وعن أولادهم، وهذا الأمر مهم جدًّا؛ فإن الغفلة عنه تؤدي إلى انقضاء عهد الحسنات، وكلما ظن المؤمنون أنهم بمأمن من هجمات الشيطان سادهم دور التدهور والانهيار، وأخذ الشيطان يغلبهم شيئا فشيئا، يا ليت كان هناك قوم يرعون هذا الأمر حق رعايته، فيحطّمون رأس الشيطان. كما أن من عادة أهل الصلاح أنهم يُفرطون في حب أولادهم ويثقون بهم أكثر من اللازم.. مما يوقع الأولاد في شراك الشيطان بعد أن كانوا صالحين.

الأمر الثاني: أن الله تعالى قد قضى بأن آدم وذريته سيسكنون هذه الأرض، ولن يغادروها فرارا من هجمات الشيطان، بل عليهم أن يعيشوا فيها معا، يواجه كل منهم الآخر. ولكن للأسف، يزعم بعض المسلمين أن ذرية الشيطان لما هجموا على عيسى بن مريم (عليهما السلام) رفعه الله تعالى إلى السماء، وأبعده عن نطاق الأرض ليحفظه من كيد أعدائه. إن هذا الاعتقاد يناقض هذه الآية مناقضة صريحة، لأن الله تعالى يقول: إن على آدم وذريته أن يعيشوا في هذه الأرض.. فهي مستقرهم، أي مكان إقامتهم الدائم الثابت، فكيف يمكن أن يرفع المسيح الناصري إلى السماء؟ لو كان أحد أحق بالرفع إلى السماء عند التعرض لهجمات الأعداء لكان آدم.. أول الأنبياء، أو محمد المصطفى ﷺ سيد ولد آدم. إن هؤلاء

يعتقدون بأن آدم بعد أن تعرَّض لهجوم الشيطان طرح من السماء إلى الأرض، ويوقنون بأن محمدا ﷺ اضطر للهجرة من مكة إلى المدينة، و لم يرفعه الله تعالى إلى السماء مع أنه الأحق بذلك والأولى!

الأمر الثالث: أن انخداع آدم بقول الشيطان راجع إلى ظن آدم بأنه مأمور بالابتعاد عن مظهر معين للشيطان، لكن الله تعالى كان يريد أن يبتعد آدم من الشيطان وأتباعه جميعا.. ذلك لأن الشيطان إنما هو روح معنوية مثيرة للسيئات، وما كان من الممكن أن يُخدع آدم بصورة جسمانية وبطريق مباشر، ولكن أتباعه هم الذين يهيجون حركات الشر، وهم من بني الإنسان، ولذلك تتعذر معرفتهم، لأنهم أحيانا يتظاهرون بالإيمان فيُعتبرون من المسلمين، وبذلك ينجحون في مكائدهم ويصعب تمييزهم.. هل هم أتباع الشيطان أم هم من المؤمنين الناصحين حقا. إن مظهر الشيطان المذكور في الآية استعْمَل ذات المكيدة الشيطانية التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٢٢). ومثل هذا الخداع لا يخالف العقل، وقد يقع فيه الإنسان. وأمثال هؤلاء الشياطين المنافقين كانوا في عهد رسول الله ﷺ أيضًا، وجاء في حقهم: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *﴾ (المنافقون:٢ إلى ٥).

ورب متسائل يقول: لو سلمنا بأن الشيطان ظهر لآدم بمظهر مخالف لإبليس، وتظاهر له بالإيمان والإخلاص مما جعل آدم ينخدع به، فكيف يصح ذلك مع أن ما أمر به الشيطان كان معصية لله تعالى، وكيف يقدُم آدم على مخالفة أمر الله؟

وجوابنا على ذلك أن الإنسان كما يخدع غيره بتغيير زيه ومظهره.. كذلك يخدعه بتصوير الحقائق على عكسها، وتقديمها بصورة مزيفة. وقد ذكر القرآن هذا الأسلوب عن المنافقين في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة:١٢). ويخبرنا القرآن أيضًا أن الشيطان اتبع مع آدم نفس المكيدة؛ فعندما حرّضه على مقاربة الشجرة الممنوعة قال له: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف:٢١).. فكأن الشيطان يقول لسيدنا آدم: يجب أن تفكر في حكمة الامتناع عن الشجرة بدل من التمسك بظاهر نص الأمر الإلهي، إن الله يريد لك أن تصبح ملكا وتنال خلودا بالامتناع عنها.. ويمكن لك تحقيق هذا الغرض نفسه الآن باقترابك منها. فتمسَّك بروح الأمر ولا تتردد في الاقتراب من الشجرة فتحقق المشيئة الإلهية.

وقد أوضح القرآن هذا المعنى في موضع آخر قائلا: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ (طه:١٢١). وقوله تعالى ﴿ومُلك لا يبلى﴾ أي حياة كحياة الملائكة لا يصيبها الانحطاط.

وبالنظر في الآيتين السابقتين معا نلاحظ في الأولى أن الشيطان تظاهر أمام آدم بالإيمان وتصديق ما أُمر به آدم من حيث الغرض من الابتعاد عن تلك الشجرة. وفي الآية الثانية ارتدى عباءة الناصح المجتهد.. وأوهم آدم بأن الظروف قد تغيرت، وأن بوسعه الآن تحقيق الغرض الإلهي نفسه بالاقتراب من الشجرة بدلا من تجنبها؛ فالأولى هو العمل بروح الأمر وليس بنص الكلمات، وما دام الهدف الأصلي متحققا فلا بأس من ذلك.

ويتبين من ذلك أن الخواص فضلا عن العوام يمكن أيضًا أن يخطئوا هكذا في فهم بعض المسائل الدقيقة. ثم إن آدم كان أول الأنبياء، ولم يكن قبله مثل هذه الأحداث حتى تكون له عبرة منها. وربما شاء الله تعالى أن يقع آدم في هذا الخطأ ليكون عبرة لمن بعده. ففي أيامنا هذه ينخدع عامة المسلمين بمثل هذه الاجتهادات الخاطئة رغم وجود هذه العبر في الماضي. فمثلا يخدع بعض "العلماء " التجار وغيرهم بقولهم بأن الربا الذي حرمه الإسلام هو غير الفائدة التي تعطيها البنوك في هذه الأيام، وإذا كان أخذ الربا مهلكا للقوم في تلك الأيام، فإن ترك هذه الفوائد يهلكهم اليوم، لذلك لا حرج في أخذ فوائد البنوك، بل هي ضرورية لأجل الحياة القومية. وهناك العديد من المسلمين الذي يودون بصدق أن يعملوا بالتعاليم الإسلامية في شأن الربا، ولكنهم ينخدعون بهذه الأقوال ويأخذون الربا.

كذلك يخدع البعض المرأة المسلمة قائلا: إن العرب كانوا جهالا، وكان سفور النساء مدعاة لفسادهن في تلك الأيام، أما اليوم فنحن في زمن العلم والحضارة، فلا حرج في ترك الحجاب، بل إن خروج النساء المسلمات سافرات سوف يدعم الإسلام ويقويه، وقد انخدعت الكثيرات من المسلمات المخلصات بهذه الأقاويل وتركن الحجاب.

ويخطئ بعض الناس في فهم قوله تعالى ﴿اهبطوا﴾، فيقولون إن معناها أن الله تعالى أسقط آدم من السماء على الأرض، ولكن من معاني الهبوط الانتقال من مكان إلى آخر، كما ورد في قوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل ﴿اهْبِطُوا مِصْراً.. ﴾ (البقرة:٦٢).. أي ارتحلوا من هنا إلى بلد آخر. وهذا المعنى أنسب وأوفق مع قول الله تعالى عن آدم ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، فهو خليفة في مكانه الأول وفي مكانه الثاني من الأرض بعد ارتحاله.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٨﴾

شرح الكلمات:

تَلقَّى: فلان يتلقى فلانا: يستقبله. تلقى الشيءَ: لقِيه. وتلقى الشيءَ منه: تلقَّنَه (الأقرب). وتلقى آدم من ربه كلماتٍ: أي أخذها عنه، وقيل تعلمها (اللسان). فمعنى ﴿تلقى آدم من ربه﴾ أنه تلقن أو تعلم بالوحي من ربه بعض عبارات الدعاء.

كلمات: جمع كلمة أي لفظة؛ وكل ما ينطق به اللسان مفردا كان أو مركبا. والكلمة: الخطبة؛ القصيدة (الأقرب).

تاب: تاب إليه وعليه: رجع عليه بفضله.

التفسير: عندما خدع الشيطان سيدنا آدم وأطلعه الله على زلته.. دعا الله تعالى مبتهلا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٤).. ويبدو أن هذا هو الدعاء الذي تلقنه من ربه.

تدل هذه الآية على حقيقة لطيفة، ذلك أن الله تعالى يتفضل على الإنسان فيعلمه الأدعية التي تستدر الرحمة الإلهية. وكثير من الناس يصطنعون أدعية من عند أنفسهم، وقد تتسم بالنقص والانحراف، مما يجعلها تتحول إلى دعاء عليهم. ولا نعني بذلك أن يمتنع الإنسان مطلقا عن الدعاء بكلماته.. بل المراد به أن يسعى الإنسان كما سعى آدم عليه السلام للاتصال بالله اتصال وثيقا.. لكي يتلقى من الله تعالى الدعاء عندما يتعرض لمشكلة أو مصيبة، ولكي يرث فضل الله تعالى بذلك الدعاء.

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٩﴾

شرح الكلمات:

خوف: الخوف انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب.(الأقرب)

يحزنون: حزِن عليه وله: ضد سُرَّ. الحُزن: الغمُّ؛ خلاف السرور. الحَزن: الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي"التاج". الحَزن: خشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم، ويضاده الفرح (المفردات). فالفرق بين الخوف والحزن أن الخوف يخص المستقبل والحزن يخص الماضي.

التفسير: في قوله تعالى ﴿اهبطوا﴾ بصيغة الجمع دلالة على أن آدم وزوجه لم يكونا وحدهما في الجنة، بل كان معهما أتباع آدم عليه السلام أيضًا.

ولقد وعد الله عز وجل بهذه الآية أنه لن يزال يظهر من ذرية آدم دعاة يحملون إلى الناس الهدي الإلهي، ويدعوهم إلى الأعمال الصالحة، وأن من يستجيب لهم ويهتدي سيدخل الجنة في هذه الدنيا أيضًا، أي أن قلوبهم ستكون عامرة بالقوة الإيمانية التي تورثهم الطمأنينة في كل حال، فلن يداخل قلوبهم الخوف من المصائب المقبلة، ولا الحزن على ما قد أصابهم من قبل، بل تكون قلوبهم المطمئنة بمثابة الجنة لهم. ثم إن جنة الآخرة بعد الموت ميراث لهم يجدون فيها من نعيم الله تعالى ما لا يُحصى.

وتدلنا الآية أيضًا على أن الوحي الإلهي لم ينقطع بعد آدم، لأن الله تعالى وعد منذ ذلك العهد بأن وحيه لن ينقطع نزوله، وأن المؤمنين به سوف يحظون بفضل الله دون انقطاع.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٠﴾

شرح المفردات:

كذبوا: كذَّب: نَسبَه إلى الكذب؛ وقيل: قال له: كذبتَ. كذَّب بالأمر تكذيبا وكِذابا: أنكرَه وجحده. (الأقرب)

آيات: جمع آية وهي: العلامة؛ الدليل. والآية: كل قطعة من القرآن فصلت عن غيرها بعلامة. (التاج)

خالدون: الخلود في الأصل الثبات المديد دام أم لم يدم.

التفسير: الذين يتنكبون عن طريق الهدى ولا يؤمنون بالآيات التي جعلها الله تعالى لمعرفته سيقعون في النار، ولن يجدوا طمأنينة القلب وسكينة النفس رغم كثرة النعم التي تحيط بهم، كما ينالون العقاب بعد الموت.

إن الإسلام لا يقول بالعذاب الدائم غير المنقطع، بل إنه يعد جهنم كالمستشفى الذي سيدخله الناس للاستشفاء من أمراضهم. فإذا ما تحقق الإصلاح والشفاء ينتهي العذاب والعلاج، لأن الهدف من العقاب ليس الانتقام الناجم عن غيظ أو غضب أو عداوة، بل هو للإصلاح فقط، ولقد ورد في الحديث النبوي أنه "يأتي على جهنم زمان لا يبقى فيها أحد، ونسيم الصبا تحرك أبوابها" (تفسير معالم التنزيل، آية: أما الذين شقوا..).

يجب أن تكون قصة آدم عليه السلام موعظة وذكرى لكل واحد من بني آدم، لأن كل إنسان يولد فهو كآدم، ويؤمر الملائكة بمساعدته، لأنهم خلقوا كواسطة لتدبير نظام هذا الكون، فتكون كل الأشياء الخاضعة لتدبير الملائكة معاونة للإنسان، وتنفعه في الاستمتاع بحياته. بَيْد أن بعض الأشرار لا يرتاحون لارتياح إخوانهم، فهم كالشيطان يحاولون إخراجهم من تلك الجنة الروحانية التي أُورِثَها كلٌّ إنسان منذ ولادته، ساعين إلى إيذائهم. لكن الذي يخضع لربه كما خضع آدم، ويلجأ إليه عند المصائب ينال النجاح، ويعلو عن متناول الخوف والحزن، أما الذين لا يقتفون بآثار آدم وتزلّ أقدامهم في الابتلاءات، ويصالحون الشيطان ويعرضون عن هدى ربهم، فإنهم يصيرون عرضة للآلام فيهلكون.

تطلع الشمس في كل يوم لترى تكرار هذا الحادث في الدنيا، ولكن الإنسان الذي بنفسه واقع في أنواع المعاصي الخطيرة يلوم آدم لاتباعه الشيطان؛ مع أن آدم أخطأ و لم يكن له عزم على الخطأ. ومثل هؤلاء المعترضين الذين لا يتورعون عن الاعتراض على آدم لا يدركون أن الشيطان قابع في قلوبهم هم.

وتخبرنا الآيات السابقة:

١. أن الوحي الإلهي موجب لشرف الإنسان وفضيلته على سائر الحيوانات. فالأمم التي لا تقدِّر الوحي الإلهي حق قدره فإنها مجرمة بتفضيل الحيوانية على الإنسانية، وإنها لتعرقل طريق النهضة الحضارية اليوم وتحول دونها في المستقبل أيضًا، وأنه لن يدفع عجلة التقدم الحضاري إلا أولئك الذين يلبّون الدعوة السماوية، وإن الذين استجابوا لدعوة محمد ﷺ في هذا العصر هم الذين سيؤسسون مَدَنيّة جديدة نافعة. وهذا ما وقع فعلا.. إذ إن أتباع هذه الحركة الروحانية الكبرى أصبحوا طبق سنة الله المستمرة مؤسسين لَمَدَنية جديدة عظيمة. إن الحضارة الغربية العصرية، وإن بدت رائعة جدا، إلا أنها مقتَطَفةٌ إلى حد كبير من المدنية الإسلامية، وإن النواحي التي تختلف فيها مدنية الغرب عن المدنية الإسلامية هي التي سببت الإخلال بالأمن والسلام العالمي.

٢. أنه كلما ظهرت للناس حركة إصلاحية جديدة عارضوها، لأنها تكون في بداية الأمر من العظمة والروعة بحيث يقصر عن إدراك أعماقها وقوة تأثيراتها حتى الصالحون من عباد الله. فكان من اللازم أن يحدث ذلك عند ظهور الإسلام أيضًا، وكذلك حدث.

٣. أما الصالحون فلا يلبثون بعدئذ أن يعترفوا بأخطائهم، ويذعنون لعظمتها، ويندفعون إلى تأييدها. أما الأشرار فإنهم يبدءون في مقاومتها، وكذلك جرى للإسلام وسيجري أيضًا. وقد رأينا أن صالحي الفِطرة من الناس تتابعوا في الدخول في الإسلام أفرادا، وقاموا لمناصرته، غير أن المطبوعين على طبائع إبليس تمسكوا بالتمرد والعصيان.

٤. عندما يخيب الأعداء في مقاومتهم العلنية ضد الجماعات الإلهية، فإنهم ينضمون إليها نفاقًا، ليقوموا بالدسائس السرية من داخلها، كما تظاهر الشيطان بالنصيحة لآدم. وكما خاب شيطانُ آدمَ وخسر، فإن أعداء الإسلام سيخيبون ويُحبط الله مكائدهم ولن يمسوه بسوء، ولسوف يتقدم الإسلام ويزدهر بالرغم من عدواتهم ومقاومتهم، وسيتجرعون الغصص من عذاب الغيظ الدائم.

٥. إن الهداية السماوية ليست مقصورة على زمن دون زمن، بل إن الله لن يزال يرسل الهداية طبق مقتضى كل عصر. فلو كانت سنة إرسال الهداية محدودة لانسدت أبوابها بمجرد ظهور النبي الأول كما تزعم الهندوس مثلا. فانقطاع الهداية السماوية يخالف مقتضيات العقل ويناقض متطلبات الوحي السماوي أيضًا.

٦. إن الذين يؤمنون بالهداية السماوية يحفظهم الله من سيئات أعمالهم السابقة كما حفظ آدم عليه السلام. وبسبب الإيمان بهذا الوعد يصير المؤمن جريئا شجاعا مقداما، لا يخاف العواقب عند الفداء بكل ما يملك، لأنه يوقن بأن الوحي السماوي هو العروة الوثقى التي إذا استمسك بها نجا من جميع الهموم والآلام. فله إحدى الحسنين: إما القيادة والصدارة إذا كتبت له الحياة، أو الشهادة المريحة في أحضان حب الله تعالى. فمم يخاف؟

يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِىٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

بني إسرائيل: إسرائيل لقبُ لسيدنا يعقوب عليه السلام، وتقول التوراة إن هذه التسمية أطلقها الله تعالى عليه لشجاعته: "فقال: لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرتَ" (التكوين:٢٣:٢٨). وهذا اللقب يطلق أيضًا على نسل يعقوب فيسمون "إسرائيل" بدلا من بني إسرائيل.(Analytical Hebrew and Chaldec)

ويقال لإسرائيل بالعبرانية "يسرائيل" وهي كلمة تتركب من "يسر" أي المقاتل الباسل و "إيل" أي الرب.. بمعنى "المقاتل الباسل للرب".

وتتركب الكلمة العربية "إسرائيل" من "إسر" و "إيل". ويمكن أن تكون عبرانية الأصل معربة، ولكن الواقع أن اللغتين لغة واحدة، وحسب تحقيقنا فإن العبرانية صورة مشوهة من العربية. ويرى هذا الرأي

بعض العلماء الغربيين، وإن كان معظمهم بسبب تعصبهم الديني يعتبرون اللغتين متفرعتين عن لغة أخرى؛ بل قال بعضهم إن العربية انحدرت من العبرانية! ولا يسمح المجال ببحث هذه القضية. وإنما نكتفي هنا بالقول إن كلمة "إسرائيل" عربية الأصل، تغير شكلها في العبرية.

يقال في العربية: أَسَرَ الرجلَ: قبض عليه وأخذه (الأقرب). ويكون معنى كلمة "إسر" القوي الشجاع الذي يتغلب على خصمه ويأسره. وإذا لاحظنا كلمة "يسر" العبرانية التي تعني في العربية اللِّين والانقياد كان معناها: من يتقبل القول بلين وينقاد دون معارضة.

وكلمة "إيل" في صورتها هذه لا تعني في العربية معنى الرب، ولكن إذا أمعنا النظر وجدنا أن معناها الحقيقي يصدق على الله تعالى، لأنها مشتقة من فعل "آل" واسم الفاعل منها "آئل"، والصفة المشبهة منها "إيل". ويعني "آل" ساس؛ يقال آلَ الرجلُ أهله أي ساسهم (الأقرب)؛ وآلَ الملكُ الرعية: تفقد أحوالها ودبر أمورها؛ وآل على القوم: وليَهم أي صار وليَّ أمرهم. فتعني كلمة "آئل": المدبر؛ الحاكم؛ الملك؛ وتعني كلمة "إيل" الكائن المتصف أزلا وأبدا بصفات التدبير والحكم والملك؛ وهي صفات لا توجد إلا في ذات الله تعالى، لأنه أزلي أبدي.

ومن معاني آل: عاد، وبناء على ذلك تعني كلمة "إيل" الكائن المتصف أزلا أبدا بصفة الرجوع، وهذا المعنى نفسه مدلول صفة "التواب" الإلهية، أي الذي يرجع على عباده برحمته مرارا وتكرارا.

فيكون المراد من إسرائيل بناء على اشتقاقه من "إسْر": (١) العبد القوي الشجاع للملِك الأزلي الأبدي سبحانه وتعالى، (٢) العبد القوي الشجاع للكائن المدبر أزلا وأبدا سبحانه وتعالى، (٣) العبد القوي الشجاع لمن يعود على العباد مرارًا.. أي التوّاب سبحانه وتعالى.

وبناء على الاشتقاق من "يسر" فتعني: عبد الله المطيع المتخلق بأخلاقه تعالى. وإذا اعتبرناها صفة مشبهة من "يسر" كانت إشارة إلى صفة مميزة توجد في فطرة الأنبياء.. وهي استسلامهم التام الدائم لله تعالى.. فكأن إسرائيل تعني المطيع المستسلم لله تعالى، والمنقاد دائما لأحكامه. ويتأكد هذا المعنى من معجم تاج العروس أيضًا حيث جاء فيه: إسرائيل معناه صفوة الله، وقيل: عبد الله، وقيل: سريُّ الله.. والسريّ هو السيد الشريف ذو المروءة والكرم والعز.

ويصرح المعجم العبراني الإنجليزي للعهد القديم "Hebrew & English Lexicon of the old Testament" أن المعنى الحقيقي لكلمة "يسر" ليس "سريّ" وإنما قريب منها.

والحق أن كلمة "يسر" تعني المقاتل الشجاع، ومثل هذا الإنسان يُؤمَّر على الجيش، وكان العرب يسيِّدون عليهم أشجعهم وأشرفهم وأكثرهم مروءة وكرما. وهكذا تتضمن كلمة "يسر" معنى "سري" أيضًا.

أُذكروا: ذكر الشيء ذكرا وتذكارا: حفظه في ذهنه. وذكر الشيء بلسانه: قال فيه شيئا. وذكر لفلان حديثا: قاله له. وذكر ما كان قد نسيَ: فطن به (الأقرب). والذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره. وتارة يقال لحضور الشيء القلبَ أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان؛ وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ (المفردات).

نعمتي: النعمة: الصنيعة والمنّة، ما أُنعم به عليك من رزق ومال وغيرهما؛ المسرة؛ اليد البيضاء الصالحة. وفي الكليات: النعمة في أصل وضعها: الحالة التي يستلذ بها الإنسان، وهذا مبني على ما اشتهر عندهم أن النِّعمة للحالة، والنِّعمة للمرة. ونعمة الله ما أعطاه الله للعبد مما لا يتمنى غيرَه أن يعطى إياه " أي حتى لا يتمنى بعده شيئا يعطاه ". وجمع نعمة نِعَم وأنْعُم. يقال: فلان واسع النعمة أي واسع المال (الأقرب).

عهدي: العهد: حفظُ الشيء ومراعاته حالا بعد بحال. وسُمي الموثِق الذي يلزَم مراعاتُه عهدا. وعهدُ الله تارةً يكون بما ركَزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمَرنا به بالكتاب وسنّةِ رسله، وتارةً بما نلتزمه (المفردات).

والعهد: الوصيةُ والأمر؛ الموثِقُ واليمين؛ الحفاظُ ورعاية الحرمة؛ الأمانُ؛ الذمةُ؛ الالتقاءُ؛ المعرفةُ؛ الزمانُ؛ الوفاءُ؛ توحيدُ الله تعالى؛ الضمانُ؛ الذي يُكتَب للوُلاة (التاج).

ارْهَبون: رهِب الرجلُ يرهَب رهبةً: خاف (الأقرب). وأصلُ ﴿ارهبونِ﴾ ارهبوني.

التفسير: وبذكر مثال سيدنا آدم عليه السلام بيّن أن دعوى محمد رسول الله ﷺ ليست أمرا مبتدعا.. فما أن اكتمل العقل البشري حتى أنزل الله تعالى وحيه على آدم. وبعد آدم كان يمكن أن يتساءل أحد عن الحاجة إلى إرسال وحي آخر بعده؛ وهذا سؤال عام يثيره منكرو النبوة، بل أتباع الديانات السابقة. وغرض المنكرين للنبوة من السؤال هو التشكيك فيها، بناء على أن المدعي الجديد قد يكون على خطأ، والأنبياء السابقون قد مضوا في سبيلهم وليس لهم من يخلفهم أو ينوب عنهم ليطاع أو يتبع. أما أتباع الديانات السابقة فيعترضون على أساس أنه ما الحاجة إلى نبي جديد مع وجود ديننا؟

ويمكن الرد على هذا السؤال بطريقين: الأول أن نثبت ضرورة النبوة عقلا، والثاني أن نقدم شهادة التاريخ على أن النبوة كانت مستمرة بعد آدم. وقد تناول القرآن الكريم ضرورة النبوة من حيث العقل في مواضع أخرى عديدة، وقد اختار هنا الطريق الثاني، وبين أن هناك من ادعى النبوة قبل الإسلام بزمن قريب، وبذلك أبطل القرآن الاعتراض على نزول شريعة أو وحي نبوة رغم وجود شريعة سابقة. قال:

فكيف تنكرون صدق أولئك الذين تحقق صدقهم بالشواهد والدلائل؟ وإذا كانوا صادقين في دعواهم، فكيف يمكن إنكار الوحي الذي أتى بعد الوحي الأول؟ وإذا كان نزول الوحي مستمرا بعده، بل بعث الله تعالى الأنبياء حتى إلى ما قبل الإسلام بزمن قريب.. فكيف يصح الاعتراض على الإسلام بنزول الوحي الجديد فيه رغم وجود الشرائع السابقة؟

وهناك فائدة أخرى لاختيار هذا الأسلوب في الرد على ذلك السؤال.. ذلك أن اليهود والنصارى كانوا من أول المخاطبين بالقرآن الكريم. فاستدل على استمرار الوحي بتقديم أمثلة من أنبيائهم وبيّن أنه كانت هناك حلقة في سلسلة النبوة لا تكتمل إلا بها، ألا وهي بعث النبي من بني إسماعيل. فلقد أخبر الوحي منذ عهد إبراهيم ببعث نبي من أبناء إسماعيل أيضًا. وقد أوضح موسى ومن جاء بعده من الأنبياء عليهم السلام نبأ مجيء هذا النبي بمزيد من البيان. فالاستشهاد بوحي هؤلاء الأنبياء له فائدتان: إحداهما ضرورة استمرار النبوة، والثانية أن ثبوت انتقال الوحي الإلهي بعد هذه السلسلة من النبوة إلى بني إسماعيل كان حتما ولازما.

ولبيان هذا الدليل.. شرع الله تعالى بدءا بهذه الآيات يخاطب بني إسرائيل مذكرا إياهم بنِعَمه عليهم. وطالبهم بتقديم شهادة صادقة بأن الوحي الإلهي كان مستمرا في العالم، وأنكم كنتم مهبطا له، بل إن انتقال سلسلة الوحي منكم إلى بني إسماعيل مذكور في كتبكم.

إسرائيل

كان إسحاق الابن الأصغر لسيدنا إبراهيم؛ وهو والد يعقوب الذي أنجب يوسف عليه السلام. وليعقوب مقام خاص عند اليهود، ويبنون تفوقهم العرقي على بنوتهم له، وقد نال لقب إسماعيل من الله تعالى فسُمي أولاده بنو إسرائيل، إذ ورد في التوراة أن يعقوب أثناء سفر له صارع شخصا طوال الليل.. وأن هذا الشخص كان "الرب" "فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدتَ مع الله والناس وقدرتَ". (تكوين ٣٣: ٢٨ إلى ٣٠)

ويقول شراح التوراة إن ذلك المصارع كان ملَكا دون أن يقدموا دليلا على ذلك. وسواء كان من رآه يعقوب في عالم الكشف أو الرؤيا ملكًا أم الرب نفسه.. فهو الذي سماه إسرائيل، لأنه كان في نظر الله تعالى والخلق قويا غالبا، فمعنى إسرائيل، بحسب التوراة، العبد القوي للرب، أو العبد الغالب في سبيل الرب. والمعنى اللغوي لإسرائيل كما جاء في شرح المفردات هو "المقاتل الباسل أو الجندي القوي للرب، أو العبد المطيع لله". وبسبب هذا اللقب سُمي أولاده بني إسرائيل.

بنو إسرائيل واليهود

لم تذكر هذه الآية كلمة اليهود، ولكنها وردت في القرآن الكريم في مواضع أخرى في صيغة "يهودي" أو صيغة "هود".. ومن المناسب أن نعرف الفرق بين كلمتي يهود وبني إسرائيل.

تردد اسم "بني إسرائيل" في ٤٨ موضعا في القرآن الكريم، وجاءت كلمة "اليهود " في ٩ مواضع منه. وكلمة "هود" في ٣ مواضع. وإذا نظرنا إلى هذه المواضع وجدنا أنه كلما أراد القرآن ذكر أتباع دين موسى قال "اليهود" أو "هود"، وكلما أراد الإشارة إلى نسل يعقوب قال "بني إسرائيل". وكلمة "هود" في المواضع الثلاثة تقابل كلمة "النصارى" إشارةً إلى أتباع الملة اليهودية والملة النصرانية، وكذلك كلمة "اليهود" في تسعة أماكن وردت في ثمان منها مقابل كلمة نصارى.. مما يدل على أن المراد منها هو الملة المرسومة وليس الشعب الإسرائيلي. أما في الموضع التاسع "المائدة: ٦٥" فيدل السياق أن الموضوع أيضًا يدور حول عقائد الديانة اليهودية. ولكن كلما وردت كلمة "بنو إسرائيل"..في القرآن كانت دلالة على الشعب الموسوي، وليس هناك موضع استخدم فيه القرآن الكريم كلمة "النصارى" بإزائها.

وبناء على هذا التباين بين الكلمتين.. يمكن أن يندرج تحت خطاب "بني إسرائيل" أيضًا من كانوا من نسل يعقوب وإن تركوا الدين اليهودي ودخلوا مثلا في النصرانية أو الإسلام. كذلك بالنسبة لكلمة "يهود" أو "هود"، فمن اعتنق الديانة الموسوية وإن لم يكن من بني إسرائيل يمكن أن يسمى يهوديا.

وربما يتشكك أحد في أن اليهود لا يسمحون بدخول الناس في ديانتهم فكيف نستسيغ أن يدخل أحد من غير بني إسرائيل في الدين اليهودي. فالجواب على ذلك أنهم لا شك يعتبرون دين موسى خاصا بهم، ولكن كانت هناك بعض الاستثناءات أيضًا. فقد رخّصوا لبعض الناس الدخول في دينهم مثل عبيدهم أو الذين هاجروا إلى بلادهم واستوطنوها وعاشوا تحت حكمهم، فقد جاء ذكر ذلك في التوراة: "وإذا نزل عندك نزيل وصنع فِصْحًا للرب فليُخْتَتَن منه كل ذَكر، ثم يتقدم ليصنعه، فيكون كمولود الأرض، وأما كل أغلف فلا يأكل منه. تكون شريعة واحدة لمولود الأرض وللنـــزيل النازل بينكم". (خروج ١٢ :٤٨ و ٤٩)

يتضح من هذه الفقرات أن شريعة موسى وإن كانت تعتبر خاصة لبني إسرائيل ولكنها، لغرض التوحيد بين طوائف المجتمع، تسمح بدخول من يترل بلادهم ويقيم معهم ويكون تابعا لحكومتهم.

وكذلك ورد في (سفر تثنية ٣:٢٣ إلى ٨) قائمة بشعوب تدخل في النظام اليهودي بشروط خاصة.

وورد أيضًا: "وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيدا..كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدي آتي بهم إلى جبل قدسي وأفرِّحهم في بيت

الصلاة، وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة في مذبحي، لأن بيتي بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب". (إشعياء ٥٦: ٧ - ٨)

والمراد بالتمسك بالعهد هنا هو الاختتان.. لأنه علامة العهد الإلهي لإبراهيم.

ويقول العالم اليهودي يوسيفوس إن الذي يغير دينه ويدخل في اليهودية هو من يتقيد بالتقاليد اليهودية ويتبع القانون اليهودي ويقوم بعبادة الرب كعبادة اليهود له (الموسوعة اليهودية، ج ١٠).

ويتبين من التوراة أيضًا أن بعض الناس كانوا يدخلون في الديانة الموسوية عمليا. فهناك راعوث فتاة مؤابية تزوجت من رجل إسرائيلي واعتنقت الديانة الموسوية (سفر راعوث).

وكذلك يتبين من التوراة أن الآشوريين الذين استوطنوا فلسطين اتبعوا شريعة اليهود. (عزرا٣: ٢)

وهذا ما يؤكده التاريخ أيضًا، فقد ذكر المؤرخون الرومان تاسيتوس Tacitus، وديكاسيوس Diocassious، وهوريس Horecse، وغيرهم في كتبهم أسماء الرومان الذين اعتنقوا الدين اليهودي (الموسوعة اليهودية ج ١٠).

ويتبين من التاريخ الإسلامي أيضًا أن بعض عرب المدينة دخلوا في دين اليهود، مثل كعب ابن الأشرف الذي نقض عهده مع رسول الله ﷺ وحض أعداء الإسلام على الهجوم على المدينة واستئصال شأفة المسلمين، مما جعل النبي ﷺ يصدر الأمر بقتله. كان أبوه من قبيلة بني نبهان. فر إلى المدينة لاجئا بعد أن قتل أحد الناس وتحالف مع يهود بني النضير، ثم تزوج فتاة منهم تدعى عقيلة بنت أبي الحقيق، وهكذا دخل دين اليهود، وكان ابنه كعب يهوديا كذلك (شرح المواهب اللدنية للزرقاني.. ذكر قتل كعب ابن الأشرف).

كذلك يتضح من بعض الروايات أن بعض مشركي المدينة كانوا ينذرون أبناءهم لليهود، فيدخلونهم الديانة اليهودية عندما يشبون، فقد ورد: كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده. فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار. فقالوا: لا ندع أبناءنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (أبو داود، كتاب الجهاد).

والخلاصة أن اختصاص الديانة الموسوية ببني إسرائيل لا يعني أنه لا يمكن أن يدخل غير إسرائيل في اليهودية.. بل إنه بحسب الشريعة التي جاء بها موسى يمكن للرقيق أو التابع لحكم اليهود أن يدخل الدين اليهودي إذا عمل بحسب شريعته واختتن، ويعني الاختصاص هنا فقط أن هذه الديانة ليست ديانة تبشيرية، ولم يؤمروا بالخروج إلى الأمم الأخرى لدعوتهم إلى اليهودية، ويعني أيضًا أن الوعود المتعلقة بالرقي والازدهار خاصة بالإسرائيليين، أما الأمم الأخرى فيمكن أن ينالوا منها شيئا بشرط أن يكونوا

تابعين ومطيعين لهم تماما. ولكن الإسلام، خلافا لذلك، يأمر بالتبليغ ودعوة الناس كافة، ولا يعتبر ما يَعِدُ به المؤمنين خاصًّا بالعرب، بل كل وعوده تشمل المؤمنين جميعا عربا وعجمًا.

ولما كان مسموحًا ليهود بني إسرائيل أن يُدخلوا في دينهم أبناء الأمم الأخرى بصفة استثنائية، وقد دخل فيه عدد محدود من هؤلاء، لذلك لزم أن يكون لهم اسم سوى "بني إسرائيل" ينسبهم إلى الدين بدلا من الشعب. وبمرور الوقت استخدم وصف "اليهود" تحقيقا لهذا الغرض.

كان عدد الداخلين في اليهودية من غير بني إسرائيل بعد موسى بفترة قصيرة قليلا، وكان بنو إسرائيل يسمونهم "أجانب أو غرباء"، ولكن بعد أن قامت دولة إسرائيل في زمن داود عليه السلام، واتسع نطاق حكمهم، وبدأت الشعوب الأخرى تنظر إليهم باحترام، ودخل من رعاياهم عدد لا بأس به في اليهودية.. مست الحاجة أن يكون هناك اسم غير بني إسرائيل يشمل هؤلاء أيضًا.

كما لعبت الظروف السياسية دورًا في اختيار هذا الاسم.. فقد خلف سليمان عليه السلام ابنه "رحبعام" وكان ذا ميول دنيوية، ولما جاء بنو إسرائيل في حفل تتويجه طلبوا منه أن يجري تعديلات تخفف من وطأة القانون. ولكنه بناء على مشورة أصدقاء من الشباب اشتد عليهم في الجواب وطردهم من المجلس. وعلى إثر ذلك قام عشرة من رؤساء قبائل إسرائيل الاثني عشرة بإعلان التمرد عليه بمجرد خروجهم من المجلس؛ و لم يبق تحت حكمه سوى منطقة اليهودية التي تدعى اليوم فلسطين، وكانت تضم قبيلتي يهوذا وبنيامين. وسبب وفائهما له أن سيدنا داود عليه السلام كان من سبط يهوذا وَوُلد ونَشَأ في قبيلة بنيامين، وبمعونتها استولى على منطقة يهوذا ثم على سائر مناطق بني إسرائيل. (الموسوعة اليهودية، تحت كلمة داود)

ونتيجة لهذا التمرد انقسمت حكومة بني إسرائيل إلى دولتين: أطلق على أحدهما اسم يهوذا، وكانت تضم منطقة اليهودية حيث تقطن قبيلتا يهوذا وبنيامين (أخبار الأيام الأول١: ٣: ٧و ١٠، متى ١: ٢، لوقا:٣: ٣٣؛ أخبار الأيام الثاني: ١١:١)، وسميت الأخرى إسرائيل لأنها كانت تضم معظم القبائل الإسرائيلية، وكانت تشغل شمال فلسطين وغرب الشام. وبسبب هذا الانقسام مالت حكومة إسرائيل إلى الشرك، وفَرَّ علماء التوراة منها إلى اليهودية، وصارت اليهودية مركزا للعقيدة الموسوية، وحاملة لواء هذه الديانة شيئًا فشيئًا.

هكذا سمي أهل يهوذا يهودا للتفريق بينهم وبين سكان إسرائيل. وباتساع هوة الخلاف شيئًا فشيئًا بدأ اسم "يهود" يستعمل تعبيرا عن الدين بدلا من الدلالة على المكان وحده. وعندما عُمرت اليهودية على أيدي النبييْن "عُزير ونَحيما"، وصار زمام الدين الموسوي في يد أهلها وحدهم اقتصر مدلول الكلمة على اتباع الدين الموسوي و لم يَعُد يعبر عن اسم القبيلة أو المكان.. ذلك أن إحياء الدين الموسوي في ذلك

الزمن كان يجري على يد أهل اليهودية. وعندما بدأ هذا الاسم يطلق بالمعنى الديني فقط شمل أيضًا أتباع دين موسى من غير بني إسرائيل.

وعندما آمنت طائفة من بني إسرائيل بالمسيح عيسى عليه السلام انقسموا إلى فئتين: فئة بقيت على اليهودية، وقسم آخر سُمّوا النصارى. ثم جاء الإسلام وجعل بعضهم مسلمين، فكان هناك من بني إسرائيل من كانوا مسلمين.

والخلاصة أنه لما ازدهر الدين الموسوي على أيدي أهل يهوذا، وجاء كل الأنبياء العظام منهم أصلا أو نشأة.. من أمثال أرميا، وحزقيال، ودانيال، وعزرا، ونحميا وغيرهم، ولما كانت حكومة إسرائيل في الشمال قد مالت إلى الشرك.. اشتهر أهل يهوذا باسم اليهود. ولما كان الكثير من غير بني إسرائيل قد دخلوا الدين الموسوي في ذلك الزمن.. صار اسم اليهود يطلق على كل من يدخل هذه الديانة تمييزا لهم عن أهل الديانات الأخرى. وقبل الإسلام ببضعة قرون كانت كلمة "يهودي" تعني: مَن ينتسب إلى دين موسى عليه السلام. ولما كانت الوعود الإلهية لإبراهيم وموسى عليهما السلام فيما يتعلق بالمجد الدنيوي والترقي الروحاني تخص ذريتهما.. بقيت تسمية بني إسرائيل قائمة للتمييز بين الأقوام.

لقد تناولت هذا الموضوع بالتفصيل إلى حد ما لأبين أن القرآن الكريم الذي ينسبه أعداؤه إلى الجهل بالدين اليهودي وتاريخ بني إسرائيل قد لاحظ هذا الفرق بدقة تامة.. بمعنى أنه كلما أراد ذكر الدين استخدم كلمة اليهود، وإذا أراد ذكر الوعود القومية الخاصة بآل إبراهيم أو آل موسى أو آل داود أو من بعث فيهم من أنبياء السلسلة الموسوية.. لم يستخدم كلمة "اليهود" بل كلمة " بني إسرائيل"، لأن تلك الوعود لم تكن موجهة إلى أتباع الدين الموسوي وإنما كانت خاصة للقائمين على عهد الله تعالى من بني إسرائيل.. سواء أكانوا على دين موسى أو على أي دين سماوي بعده.. كمن أسلم من بني إسرائيل.

ومن المضحك أن الكتب السماوية لهؤلاء الذين يرمون القرآن بجهله بتاريخ بني إسرائيل هي نفسها تخطئ في هذا الصدد.. فمثلا جاء في الأناجيل عن المسيح أنه "ملك اليهود". وقد ورد أن بيلاطس عندما سأل المسيح: أأنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع: أنت تقول (متى٢٧: ١١، مرقص١٥:٢، لوقا ٢٣:٣).

وتتأسس دعوى الملوكية هذه على ما جاء في العهد القديم: "ابتهجي جدا يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هو ذا ملكك يأتي إليك" (زكريا ٩:٩).

وتبين هذه العبارة أن زكريا أخبر بمجيء ملك يعيد لأورشليم مجدها، فالمراد به ملك للإسرائيليين وليس ملك اليهود. فقد ورد: "يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل" (يوحنا: ٤٩). وهذا هو الصحيح، لأن الوعود برقي السلسلة الموسوية كانت مخصوصة ببني إسرائيل وليس بمن يدخل في الدين اليهودي. ثم إن خطاب المسيح عليه السلام كان موجها إلى بني إسرائيل، فقد ورد عنه أنه عندما أرسل

تلاميذه للتبشير قال لهم: "إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متى ١٠: ٥).. وجدير بالذكر هنا أن معظم السامريين كانوا ينتمون إلى آباء من اليهود، وكانوا يؤمنون بالتوراة ويعملون بها. وما دام المسيح قد نهى تلاميذه عن الذهاب حتى إلى السامريين.. فما بالكم بالأمم الأخرى الأجنبية؟

ولقد التصق هذا الخطأ بالنصارى وما زال ملازما لهم إلى اليوم. فلا يفرقون بين اليهودي والإسرائيلي. ففي هذه الثورة الحالية في ألمانيا وبعض البلاد الأوروبية ضد الجنس الإسرائيلي.. يرفعون شعار: اطردوا اليهود من البلاد. ولا يريدون بذلك كل تابع للدين الموسوي فحسب، بل أيضًا من تنصَّر من اليهود. صحيح أنهم من بني إسرائيل إلا أنهم لم يظلّوا بعد تنصّرهم يهودا. وقد ازداد هذا الحماس في ألمانيا لدرجة أن كل من كان في عروقه دم من أم إسرائيلية اعتبروه عدوا للوطن، قائلين إنه يهوديّ أو أن فيه دمًا يهوديًا، مع أنه لا يدين بدين اليهود، و لم تكن أمهاته يهوديات، وإنما كن نصرانيات وكان نسله أيضًا نصرانيا.

إذا، ففي هذا العصر الذي يطلقون عليه عصر العلوم، وتزهو به أوروبا لما تحقق فيه من ازدهار علمي.. أقول في هذا العصر أيضًا لا يفرقون في أوروبا بين اليهودي والإسرائيلي. لكن القرآن الكريم قد لاحظ ذلك قبل ثلاثة عشر قرنا. فكلما تناول ذكر الوعود المتعلقة بالازدهار القومي أو خطاب الأنبياء لهم استخدم كلمة "بني إسرائيل"، وكلما ذكر العقيدة الدينية اكتفى بكلمة "اليهود". ولما كانت الآية الكريمة التي نحدد بصدد تفسيرها تشير إلى وعود كانت مخصوصة بذرية إبراهيم عليه السلام، أو تشير إلى دعوى مخصوصة لهم عن طريق موسى عليه السلام.. لذلك استُخدم فيها وفي الآيات التالية اسم "بني إسرائيل".

و لم يكتف بقوله ﴿اذكروا نعمتي﴾ بل زاد وقال: ﴿التي أنعمت عليكم﴾ ليضيف إليه معنى آخر.. لأن من خصائص اللغة العربية أن الزيادة في الحروف أو الكلمات تعني زيادة أو جدَّة في المعنى. والمعنى المضاف هنا هو بيان أنها نعمة خاصة بقومكم. فنِعَم الله تعالى على نوعين: الأول ما هو عام يتمتع به المؤمن والكافر على حد سواء.. كالهواء والماء والنار والغذاء وغيرها؛ والثاني ما يناله عباد الله المقربون بتحقيق شروط معينة، أو ما ينزل بحسب وعود خاصة. فلو كان المراد من قوله ﴿نعمتي﴾ النوع الأول الذي يستوي فيه الكافر والمؤمن لقال: (اذكروا نِعَمي)، ولكنه تعالى استخدم كلمة "نعمة" مفردة إشارة إلى نعمة خاصة، ثم زاد عليها عبارة ﴿أنعمت عليكم﴾ لبيان أنها كانت خاصة لكم، و لم يشارككم فيها سواكم.

ما هي تلك النعمة؟ يجيب القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:٢١). هكذا خاطب موسى عليه السلام بني إسرائيل عندما اقتربوا من الأرض المقدسة، وأُمروا بدخولها.. ولم يكونوا عندئذ ملوكا، بل كانوا يتيهون في الفيافي؛ كما أنهم لم ينالوا الملك من قبل، ولم يكن فيهم مِلك قط منذ زمن إبراهيم حتى يوسف (عليهما السلام). أما بعد يوسف فكانوا عبيدا في مصر، وخرجوا من هذه العبودية على يد موسى نفسه، ووُعدوا بالملك في الأرض المقدسة التي لم يكونوا قد دخلوها بعد.. كما تبين الآية التالية من سورة المائدة. إذا، فليس المراد من قوله تعالى: ﴿جعلكم ملوكا﴾ أنهم فعلا كانوا ملوكا في الماضي، وإنما المراد أنه تعالى وعدهم بالملك. وكذلك قوله تعالى: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ لا يشير إلى الماضي، وإنما هو وعد بالمستقبل ولم يذكّرهم بأمجاد سابقة وإنما بما ينتظرهم في المستقبل.. فذكر لهم موسى وعد الله تعالى بأنهم ينالون الملك ويكثُر فيهم الأنبياء ويُعطَوْن ما لم يُعْطَ أحد من العالمين.. وجاء الخطاب بصيغة الماضي لحتمية تحقيق ما يَعِد الله تعالى به بعد دخولهم الأرض المقدسة.. فلا يتقاعَسُن عن فتحها ودخولها. ولقد كانت الأحداث التالية دليلا ثابتا على تحقق هذا الوعد.. حيث ظهر في بني إسرائيل الأنبياء بكثرة، وصاروا ملوكا، وفتح الله عليهم عن طريق سلسلة طويلة من الأنبياء علوما روحانية لا نجد نظيرها في أمة من الأمم الغابرة.

متى تم هذا الوعد؟ يتضح من التوراة أن هذا الوعد بدأ منذ زمن إبراهيم عليه السلام. فقد ورد: "وقال له: أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها" (تكوين ١٥: ٧). وورد بعده أيضًا أن هذا الوعد سوف يتحقق بهجرة قومه إلى بلد آخر حيث يصيرون عبيدا، وبعد أربعة أجيال سوف يخرجهم الرب منها إلى فلسطين فيملكونها. وتكون هذه الفترة لأن الآشوريين، سكان فلسطين، لم يتورطوا بعد في الإثم بحيث يستحقون الطرد منها عقابا لهم. ويتبين من هذا أن أول عهد كان على لسان إبراهيم، وكان موعد وفائه حين يخرج بنو إسرائيل من مصر بعد أن عاشوا هناك عبيدا. وهذا هو زمن موسى كما يتضح ذلك من التوراة والقرآن والتاريخ. فقول موسى في هذه الآية القرآنية يشير إلى هذا الوعد الإبراهيمي.

ورب معترض يقول إن الوعد الإبراهيمي هذا لا يتضمن ذكر النبوة وإنما يشير إلى الملك فحسب. ولكن إذا قرأناه في ضوء ما جاء في أماكن أخرى من التوراة اتضح لنا الأمر تماما، فقد جاء فيها: "أجعل عهدي بيني وبينك، وأكثرك كثيرا جدا. فسقط أبرام على وجهه، وتكلم الله معه قائلا: أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أبا لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيرا جدا، وأجعلك أمما، وملوكا منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك من أجيالك عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من

بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غُربتك، كل أرض كنعان ملكا أبديا. وأكون إلههم" (تكوين ١٧: ٢ إلى ٨).

يتبين من هذا أن الله تعالى وعد إبراهيم عليه السلام وعدين: أولا أنه سيُدخل قومه في أرض كنعان ويجعلهم ملوكا لها، وثانيا أن سيكون إلههم. وهذا القول يشير إلى الرقي الروحاني، أما الرقي المادي فقد أشار إليه في وعده لهم بالملك.

هذا الوعد الذي كان على لسان إبراهيم تكرر على لسان يعقوب وموسى عليهم السلام، ولكن بدايته كانت مع إبراهيم، فالنبوة والملك الموعود بهما في قوله تعالى: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا﴾، هما نفس ما وُعدوا به على لسان إبراهيم في التوراة، وهي نفس النعمة التي تشير إليها آيتنا الحالية في قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾. وبِذِكر هذه النعمة أخبرهم أن نعمة النبوة لم تنتهِ بآدم وإنما كانت في بني إسرائيل أنفسهم سلسلة طويلة من الأنبياء.. فلماذا الإنكار؟

وقد ذُكرت هذه النعمة الموعودة في موضع آخر من سورة البقرة في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٥). وتبين هذه الآية أولا: أن الله تعالى وعد إبراهيم بأن يجعله إماما، أي يقيمه في مرتبة الأنبياء أولي الأمر؛ ثانيا: طلب إبراهيم من الله تعالى أن يمتد الوعد إلى نسله، فقبل جل وعلا ذلك بشروط؛ حيث قال: إن عهده يتحقق لبعض أولاده الذين لا يحرمون أنفسهم منه بممارسة الظلم القومي، أي بصفة جماعية.

وقوله تعالى: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الذين استمرت فيهم سلسلة الوحي لمدة طويلة، وهم بنو إسرائيل، كان العهد لهم مشروطا بشروط، وما داموا مستحقين لهذا العهد وفّاه الله تعالى لهم.. ولكنهم عندما باتوا غير مستحقين كلية لنعم هذا العهد حوّله الله تعالى إلى الجانب الثاني حتمًا.

وتذكر التوراة أيضًا أن هذا العهد كان مشروطا، فقد جاء فيها: "وقال الله لإبراهيم: أما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يُختن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم.. وأما الذَّكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي" (تكوين ١٧: ١٤،١١،١٠،٩). تبين هذه العبارة أن العهد مع إبراهيم في نسله كان مشروطا وعلامته الظاهرية هي الختان، وأنّ مَن لم يلتزم بهذا العهد لا يكون له عهد مع الله تعالى، ولن ينال نِعَمَه التي وعدوا بها على

لسان إبراهيم الطّيّلا. وجدير ذكره أنه قد قيل هنا صراحة إن هذا الختان هو علامة العهد الذي بين الله تعالى وعبده، ويتبين من هذا أن الختان لم يكن هو العهد نفسه وإنما هو العلامة الظاهرية للعهد. ولكن اليهود لم يدركوا هذا واكتفوا بالختان فقط، فنبههم موسى عليه السلام إلى ذلك قائلا بألا يفرحوا بعمل واحد ويظنوا أنهم قد وفّوا جانبهم من العهد، كما قال الرب: "ولكن إن لم تسمعوا لي و لم تعملوا كل هذه الوصايا، وإن رفضتم فرائضي، وكرهت أنفسكم أحكامي، فما عملتم كل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي.. فإني أعمل هذه بكم: أسلّط عليكم رعبا وسِلاًّ وحُمّى تُفني العينين وتتلف النفس، وتزرعون باطلا زرعكم، فيأكله أعداؤكم، وأجعل وجهي ضدكم " (اللاويين ٢: ١٤إلى ١٧).

يتبين من هذا أن الختان كان فقط علامة ظاهرية، وليس العهد المتوقع وفاؤه من ذرية إبراهيم.. أي أن يكونوا طاهري القلوب، مطمئني النفوس بسنن الله، عاملين بأحكامه. وقد وضَّح الأنبياء بعد موسى هذا الموضوع أيّما توضيح، فقال النبي إرميا منذرا بني إسرائيل من عذاب الله: "ها أيام تأتي يقول الرب، وأعاقب كل مختون وأغلف.. لأن كل الأمم غلف وكل بيت بني إسرائيل غلف القلوب" (إرميا ٩: ٢٥: ٢٦). ويبين هذا أن النبي إرميا لا يعتبر الختان البدني وفاء للعهد، وإنما هو ختان القلب الذي يوفي العهد.

وخلاصة القول أن الله تعالى عاهد نسل إبراهيم عن طريقه أولا: أن يُخرج منهم عبادا مقربين.. أو بحسب تعبير القرآن الكريم "أئمة"... أي أنبياء من أولي العزم؛ وثانيا: أن يورثهم أرض كنعان فيملكوها. إنّ الوحي النازل على إبراهيم غير محفوظ بصورته الأصلية، وما نجده في التوراة من هذا الوحي لا يعطي شرحا وافيا للختان، ولكني أثبتُّ من أسفار موسى "اللاويين" وسفر النبي إرميا أن المراد بالختان ليس الختان الظاهري، بل المراد الحقيقي تطهير القلب والطاعة الكاملة، وكان الختان البدني مجرد علامة ظاهرية لهذا.

بعد هذا الشرح يكون معنى قوله تعالى: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ أن يا بني إسرائيل، تذكروا أنه ثمة معاهدة معقودة بيني وبينكم، وقد وفيت بما عاهدتكم عليه، وبعثنا فيكم الأنبياء متتابعين، وجعلنا فيكم ملوكا؛ ولكنكم لم توفوا بجانبكم من العهد، وصارت قلوبكم غير مختونة، ونسيتم أحكامي، واستولى على أفئدتكم خشية من سواي؛ ولو وفيتم بنصيبكم من العهد فإني مستعد للمضي في الوفاء بنصيبي منه، أما إذا توقعتم مني الوفاء بينما أنتم دائما تنكثون بعهدكم فهذا خطأ منكم.

وكما ذكرت من قبل أن هذا العهد الإبراهيمي أُعيد بعده على لسان أنبياء آخرين.. فقد كرر موسى -الذي أتى بالشريعة لبني إسرائيل-العهد نفسه، وهو مشهور ومعروف ورد ذكره كثيرا في التوراة، وأطلق عليه اسم "العهد" مرارا. ورد في التوراة أن الله تعالى دعا موسى إلى جبل سيناء أو "حوريب"،

حيث تَلَقّى أحكام الرب في الوصايا العشر، وجدَّد معه العهد لبني إسرائيل "خروج ١٠، تكوين ٢٠، تثنية:٥: ٢، وتثنية ١٨: ١٨ و ١٩"، وقال: "في جميع الطريق التي أوصاكم بها الرب إلهكم تسلكون لكي تحيوا ويكون لكم خير وتطيلوا الأيام في الأرض التي تمتلكونها" (تثنية ٥: ٣٣).

عندما كانت هذه الوصايا العشر تتنزل على موسى عند جبل حوريب كان جلال الله تعالى يتجلى على الجبل، وكان هناك بريق شديد يلمع، وأصوات رعد مرعبة، فارتعب من ذلك بنو إسرائيل الذين كانوا قد خرجوا من خيامهم وجاءوا إلى سفح الجبل لعقد العهد مع الله تعالى، وطلبوا من موسى أن يسمع هو لكلام الرب ثم يخبرهم بما سمع، لأنهم يرتعدون ويخشون الموت من سماع هذا الكلام. (خروج ٢٠: ١٩). وعندما قالوا هذا قال الرب لموسى: حسنا، سوف أباركهم ما داموا متبعين أحكامي، ولكن عقوبتهم على سوء تصرفهم هذا أني لن أقيم النبي المثيل لك منهم، بل أقيمه من إخوتهم.

ومع أن العبارة تقول: "يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلك" (تثنية ١٨: ١٥).. إلى أن الوحي بعده مباشرة يقول بخلاف ذلك حيث لم يذكر "من وسطك" بل فقط قال: "من وسط إخوتهم".

ثم إن عبارة "من وسطك من إخوتك" تصبح بلا معنى. فما دام المخاطبون هم بنو إسرائيل فقول "من وسطك" ثم "من إخوتك" يصيرا لغوا، لأنه ما دام الخطاب موجها لبني إسرائيل، حيث قيل لهم: سيُقام لهم نبي من إخوتهم، فمعنى ذلك أنه سيكون من قوم غير بني إسرائيل وليس منهم، ولو كان منهم فلا يعد من إخوتهم.

وثالثا: كانت إقامة نبي من إخوة بني إسرائيل عقابا لهم، فإذا كان هذا النبي سيبعث من أنفسهم.. فأين العقاب إذن؟ وقد ورد في التوراة: "حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلا: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا لئلا أموت. قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" (تثنية ١٨ :١٦ إلى ١٨). يتبين من هذا النص أن بني إسرائيل لما رفضوا سماع كلام الله المتعلق بالشريعة أغلق الله تعالى باب الشريعة عليهم، وقال إنه عندما تدعو الحاجة إلى نبي مثل موسى، أي نبي مشرع كموسى، فسيقيمه من إخوتهم.

وبحسب هذا الوعد أحرز بنو إسرائيل كل نوع من الازدهار، واستمرت فيهم سلسلة النبوة لرعاية حياتهم الروحانية، وكان لهم حكم على الأرض المقدسة فيما عدا فترة السبي القصيرة. وانتقل الحكم على الأرض المقدسة بعد نزول المسيح عليه السلام إلى طائفة آمنت به من بني إسرائيل. وفي آيتنا التي نحن بصدد تفسيرها.. يذكر الله تعالى بني إسرائيل على لسان موسى بأننا قطعنا معكم عهدا، ووعدناكم بحياة

مباركة، وقد وفَّينا بعهدنا معكم ما وفيتم بعهدكم معنا، والآن إذا وفيتم به فنحن مستعدون أيضًا للوفاء به.

وكما مرَّ ذكر العهد الإبراهيمي في القرآن الكريم،كذلك ذكر القرآن هذا العهد الموسوي فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ*﴾ (الأعراف ١٥٧و ١٥٨)

فقوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ يعني أن الذين يؤمنون به ويُعينونه باللسان والسيف ويتبعون نور القرآن الكريم لا بد أن ينالوا الفلاح وإن كانوا من غير العرب، لأن محمدًا رسول الله ﷺ ليس نبي شعب واحد بل نبي الشعوب جميعها. وقد جاء نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف:١٥٩)

وفي الآية السابقة من سورة الأعراف ذكر الله تعالى الوعد الذي وعد به موسى وبيّن أن في كتاب موسى نبأ بمجيء نبيّ أميّ، وأمر بالإيمان به وطاعته، ليتحقق هذا الوعد الذي أُعطي لقومه.. لأن الله تعالى كان أخبر موسى أنه عندما يأتي ذلك النبي الموعود فلن يتحقق الوعد إلا لمن آمنوا به، حيث قال: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتك مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه" (تثنية ١٨:١٨ و١٩). ويتبين من هذا أن الوعد الذي قطعه الله مع موسى لبني إسرائيل كان أثره ممتدا إلى ما قبل بعثة النبي المصطفى ﷺ، أما بعد بعثته فينال بنو إسرائيل إنعام الله تعالى إذا آمنوا بهذا النبي الموعود، وإلا استحقوا العقاب. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾.

وهناك مسألتان يجب الرد عليهما؛ الأولى: أنّ مَن يَكفر بأي نبي ينال العقاب، وكان هناك عدد من رسل الله تعالى بين موسى ونبينا عليهما السلام لم يؤمن بهم بنو إسرائيل، فكانوا قد نكثوا العهد مسبقًا، فكيف يكون هذا الوعيد الوارد في التوراة خاصًّا بالنبي محمد ﷺ؟ والثانية: إذا كان الأمر هكذا فإن عصر نبوة بني إسرائيل قد انتهى بمبعث النبي ﷺ.. فلماذا قيل لهم: ﴿أوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم﴾؟ وخاصة أن النبوة لا يمكن أن ترتد إليهم مرة أخرى وإن تابوا ودخلوا في طاعة النبي ﷺ؟

وجوابا عن المسألة الأولى نقول: لا شك أن بني إسرائيل قبل المصطفى ﷺ قد كفروا بأنبياء كثيرين.. لكنهم كانوا أنبياءهم القوميين من ناحية، ومن ناحية أخرى لا شك أنهم كفروهم أول الأمر ولكن فيما

بعد أُدخلت أحوالهم وإلهاماتهم في مجموعة كتبهم المقدسة فأصبح كفرهم بهم مؤقتا، ولم يحدث فرقة قومية، ولم يُحرم القوم من الإلهامات والإنعامات الروحانية التي كانت تأتي عن طريق هؤلاء الأنبياء. فكان مَثَلُهم كمَثَل أولئك العرب الذين كفروا بالرسول ﷺ في بداية الأمر، ولكنهم في النهاية آمنوا. لقد كفرت طائفة من بني إسرائيل أشد الكفر بنبيهم الأخير عيسى ابن مريم، واستمروا على الكفر به بعد ذلك، ولكنه على أية حال كان نبيًّا إسرائيليًّا، ثم إن طائفة منهم آمنت به.. وهكذا كان إيمانهم امتدادا للوعد الإبراهيمي لهم، ولو أنهم استقاموا على العهد لظلت فيهم نعمة النبوة، لكنهم لم يفعلوا ذلك. أما اليهود فنسوا الجانب الروحاني للعهد.. أي طهارة القلب وبذلك نقضوا العهد، وأما الذين آمنوا من بني إسرائيل بعيسى ابن مريم فتركوا الختان البدني وبذلك تخلوا عن علامة ذلك العهد.. وهكذا لم يبق أحد من بني إسرائيل على عهدهم. فحوّل الله العهد إلى إخوتهم بني إسماعيل. وموجز القول إن إنكار بني إسرائيل للأنبياء الذين خلوْا من قبل سيدنا محمد ﷺ كان إنكارا عابرًا مؤقتًا؛ إذ كانوا بعد ذلك يعتبرونهم من أنبيائهم القوميين.. ما عدا المسيح عليه السلام الذي استمر على الكفر به معظمُهم. ولكونه إسرائيليا نُسب إلى بني إسرائيل. وثبت من الإنجيل أنه كان يأمر باتباع شريعة موسى، وكان أول المؤمنين به من بني إسرائيل أنفسهم. وهكذا استمر الوعد يتحقق بصورة قومية عن طريق المؤمنين به من بني إسرائيل.

أما رسولنا ﷺ فلم يكن كفرهم به كمثل كفرهم بأنبيائهم القوميين، لأنه ﷺ لم يكن تابعا للشريعة الموسوية، بل إنه -كما أخبر موسى عليه السلام- جاء بشريعة جديدة؛ ولم يكن مبعوثا إلى بني إسرائيل وحدهم بل بعث للدنيا كافة. كما لم يكن الدين الذي أسسه امتدادا للدين الموسوي، وما كان لبني إسرائيل أن يفتخروا به، بل كان نهايةً لعصر تفوقهم القومي. لذلك قال الله تعالى لهم: ما دمتم قد نكثتم عهدكم معي، فقد أنهيت عهدي معكم.

والجواب على المسألة الثانية أن سلسلة الأنبياء الإسرائيليين وإن كانت قد انقطعت ببعثة الرسول ﷺ، ولا يمكن أن تستأنف بشكلها السابق ولو آمنوا بالرسول ﷺ، ولكن كان بوسعهم مع ذلك أن ينالوا رحمات الله تعالى حسب قوله: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾. وقد قال القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ*﴾ (المائدة:٦٦إلى٦٨). وتبين هذه الآية أن أصحاب التوراة والإنجيل لو آمنوا بما نزل لهدايتهم في زمن الرسول ﷺ تصديقا لما في كتبهم واتقوا، لفتح الله عليهم

أبواب الوحي السماوي من فوقهم، والرزق الدنيوي من الأرض من تحتهم، وحفظهم من عواقب سيئاتهم السابقة.. وهكذا يوفي الله لهم عهدهم، ويمتعهم بالنعم السماوية والدنيوية. ثم يأمر الله تعالى الرسول أن يبلغ هؤلاء الأمم لتقوم عليهم الحجة، ولينجوا منهم مَن يمكن إنقاذه.

إذن فَمَعَ أن النبوة قد انتقلت بحسب نبأ موسى من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل إلا أن هؤلاء لو جاهدوا للوفاء بعهدهم لعاملهم الله تعالى باستمرار عهده معهم.

وفي هذه الآية من سورة المائدة إشارة لطيفة إلى النبأ الوارد في سفر التثنية في التوراة (١٨: ١٨).. إذ إنه بعد أن حضّ بني إسرائيل على الإيمان بهذا الهدي السماوي الجديد قال لرسوله ﷺ: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته" أي بلغهم كل ما أنزلناه عليك. وهي نفس الكلمات الواردة في (نبأ التثنية ١٨:١٨) القائل: ".. وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به".

ويستنبط من قوله تعالى: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ أن باب النبوة بلا شرع لم يغلق على الأمة الإسلامية، وبيان ذلك أن الله تعالى يقول لبني إسرائيل: إذا وفيتم بوعدي واتبعتم أحكامي وآمنتم برسولي محمد.. أوفِ لكم ما وعدتكم به. وقد سبق أن بيّنّا أن هذا الوعد يتضمن بعث أنبياء فيهم. فثبت أن الأمة المحمدية لم يُسدّ عليها باب النبوة، وإنما انتهت الشريعة، وإلا فيمكن الآن أيضًا بعث أنبياء غير مشرعين تابعين للقرآن، خادمين للرسول محمد ﷺ. وإذا لم يكن هذا ممكنًا.. فما معنى قوله تعالى: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾؟ يصح هذا فقط إذا كان باب النبوة مفتوحا للأمة المحمدية.

ويجب أن نتذكر أنه بحسب نبأ موسى سالف الذكر كان باب النبوة التشريعية مسدودا على بني إسرائيل؛ وكان الباب مفتوحا للنبوة التابعة للشريعة الموسوية... لأن عبارة (تثنية ١٨:١٨) تصرح بوضوح أن النبي المشرع مثيل لموسى، لن يأتي من بني إسرائيل، وإنما يأتي من إخوتهم بني إسماعيل، فكان باب النبوة بلا تشريع مفتوحًا قبل محمد المصطفى ﷺ، وكان يأتي فيهم أنبياء غير مشرعين. وبعد الإيمان بنبوة محمد ﷺ لم يُسدّ هذا الباب في وجههم.

وقوله ﴿وإياي فارهبون﴾ صورة مؤكدة لعبارة: ارهَبوني. وقد يعترض بعض المتأثرين بفلسفة الغرب ويتساءل عن السبب في وجود هذا التأكيد المتكرر بخشية الله تعالى في القرآن.

والجواب على ذلك أولا: أن الخوف ليس شيئًا معيبًا، بل هو ضروري لنشأة التقوى، لأن الناس على أحوال.. فبعضهم ينقادون بالحب. وبعضهم بالخوف. والمربي يراعي الحافزيْن كليهما: الخوف والحب. الفلسفة لا يمكن أن تُصلح الإنسان، وإنما يتم الإصلاح بالعلاج حسب المرض. فالذين فسد حالهم لا

يمكن إصلاحهم إلا بتحذيرهم من العواقب الوخيمة المترتبة على فسادهم. ومن لم يلاحظ ذلك لا يقدر على الإصلاح.

وثانيا: إن كلمة "رهب" لا يعني الخوف بالمفهوم العام، وإنما يتضمن معنى الاجتهاد والسعي. تقول العرب: رهبت الناقة أي جَهَدَها السيرُ. فالرهب هو الخوف الذي يدفع إلى العمل، ولأجل ذلك يقولون للعابد راهب.

وأود أن أزيل هنا شبهة أخرى. يقال إن إسماعيل كان الابن الأكبر لإبراهيم "عليهما السلام"، فلماذا حَرَم الله ذريّتَه لهذه المدة من نِعَمه الخاصة؟ والجواب على ذلك أن بني إسحاق مهما ساءت أحوالهم فيما بعد، إلا أن الواقع أنهم كانوا حملة لواء الدين لمئات السنين، فكان لا بد وأن يكونوا مهبطًا لأفضال إلهية خاصة. أما بنو إسماعيل فما كانوا قد وصلوا إلى هذه المكانة قبل زمن سيدنا محمد رسول الله ﷺ، من أجل ذلك نالوا الإنعام بحسب مقتضيات الأحوال. أجل، كان نبينا ﷺ جوهرة كامنة سدّت كل نقص.. ولما كان من المقدر أن يكون ﷺ خاتم النبيين.. لزم أن يسبقه كل الأنبياء الذين نالوا النبوة بطريقة مباشرة.. ليأتي سيدنا في آخرهم ليسدّ باب النبوة التشريعية والمباشرة.

وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

مُصدِّقًا: صدّقه ضد كذّبه. التصديق: نسبة الصدق بالقلب أو اللسان إلى القائل؛ وقيل: أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر. المصدِّق الذي يصدِّقك في حديثك (الأقرب).

ثمنًا: الثمن: ما قدره العاقدان عِوَضًا (الأقرب). الثمن اسم لما يأخذه البائع في مقابلة المَبيع عينًا كان أو سلفةً. وكلّ ما يحصل عِوضًا عن شيء فهو ثمن (المفردات). والثمن: ما تستحق به الشيء؛ والثمن ثمن البيع؛ وثمن كل شيء قيمته.

التفسير: تبين هذه الآية أن معنى قوله ﴿أوفوا بعهدي﴾ هو التصديق بالنبي الموعود به في نبأ سفر تثنية "١٨:١٨"، لأنه قال بعدها : ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ ليشير إلى أن الوفاء بالعهد وخشية الله، والإيمان بما نزل على محمد ﷺ.. كل هذه الأمور ترتبط ارتباطا خاصا بتكميل النعم الموعودة لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿مصدقا لما معكم﴾ يعني آمنوا بما أنزلت من الكلام الذي يصدِّق ما عندكم.. أي أن هذا الكلام يحقق نبأ موسى الوارد في سفر (تثنية ١٨:١٨)، وكذلك أنباء الأنبياء الآخرين من بني إسرائيل. فالتصديق بهذا الكلام ومن نزل عليه يكون تصديقا لأسفاركم السابقة وعملا بها؛ وتكذيبه يعتبر تكذيبا ورفضا لها. فكأن الذي يؤمن بما يقدمه له محمد رسول الله ﷺ من وحي قرآني.. يؤمن بموسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل لأنهم الذين أنبئوا بمجيئه، ومن رفض الكلام المنـــزل على محمد ﷺ فكـــأنما رفض موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل، لأنه يرفض تحقق كلامهم.. فلن يستحق النعمة المترتبة على التصديق والإيمان بهم.

ولغير المسلم أن يسأل: هل لموسى ومَن بعده مِن الأنبياء نبأ بمجيء نبي تحقّقَ ببعثة محمد ﷺ؟ والجواب أن كل أمة من الدنيا قد أُخبرت بمجيء نبي آخر الزمان، مع بيان بعض علاماته التي تحققت في شخص محمد رسول الله ﷺ، وخاصة أنباء أنبياء بني إسرائيل التي تواترت بكثرة بحيث يمكن للإنسان أن يصنف كتابا ضخما عنها. وحيث إن هذه الآية لم تتناول ذكر نبوءات جميع الأنبياء والأديان، لذلك لن أتناولها، وإنما أكتفي بذكر نبوءات أنبياء بني إسرائيل ذكرا موجزا في ضوء قوله تعالى: ﴿مصدقا لما معكم﴾.

التصديق الأول

القرآن الكريم ونبينا محمد ﷺ يمثلان تصديقا لإبراهيم الذي أنبأ بازدهار بني إسماعيل، فلو لم يبعث محمد رسول الله ﷺ و لم يأت بما نزل عليه من الوحي القرآني لعُدَّ إبراهيم كاذبا. قال إبراهيم إن الله تعالى سمع لدعائه في إسماعيل وقال له: "وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه. ها أنا أباركه وأُثمِره وأكثِّره كثيرا جدا. اثني عشر رئيسًا يلد وأجعله أمة كبيرة." (تكوين ١٧: ٢٠)

يتبين من هذا النبأ أنه كما كان هناك وعد في بني إسحاق بأن الله تعالى سوف يكثرهم ويباركهم ويجعلهم أمة كبيرة.. كذلك كان نفس الوعد في حق بني إسماعيل. وإذا كانت التوراة تقول بأن عهد الكثرة والبركة هذا سيتحقق عن طريق بني إسحاق فحسب.. فذلك لأن القلم كان في يدهم فقالوا كما يشتهون، وإلا فإن كل ما قيل في إسحاق قيل بعينه في إسماعيل؛ فلا معنى أبدا لتخصيص إسحاق بهذا.

وبحسب ما جاء في التوراة فقد نزل كلام الله على السيدة هاجر أيضًا وكان فيه نبأ عن إسماعيل يقول: "وقال لها ملاك الرب: تكثيرا أكثِّر نسلك فلا يُعَدّ من الكثرة. وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابنا، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنسان وحشيا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن" (تكوين ١٦: ١٠-١٢). ومع أن هذا الوحي قد نزل على السيدة هاجر إلا أنه وضع في سفر من كتاب موسى.. مما يشهد ويؤكد أنه وحي من الله. لذلك صار حجة على بني إسرائيل، بمثل ما صار نبأ إبراهيم حجة عليهم. وهذا الوحي يتضمن الأمور التالية:

١. أن نسل إسماعيل سيكثرون كنسل إسحاق كثرة تفوق العدَّ والإحصاء.

٢. أنهم يحرزون مجدا عظيما بحيث يحسدهم كل العالم.

٣. أنهم برغم معاداة العالم لهم لن تلين قناتهم أمامهم؛ بل يعيشون عيشة العز والشرف.

عندما جاء رسولنا محمد ﷺ أعلن أنه سيحرز مجدا تحسده عليه العالمُ، وخاصة بنو إسحاق، وأن الله تعالى سيكتب له الغلبة على الدنيا كلها. وكأنه بهذا الإعلان أعلن أنه مُصدِّق لأنباء إبراهيم وهاجر. ولو لم يحدث ذلك ما تحقق نبأ إبراهيم ولا نبأ هاجر المتعلقان بنسل إسماعيل. ولكن ببعثته ﷺ تحقق النبأ وصار القرآن مصدقا للتوراة أي محققا لأنبائها.

وأما ما ورد في التوراة عن أن سيدنا إسحاق هو الذي سيحقق الوعد الإبراهيمي، فقد سبق الجواب عليه بأن التوراة لم تكن مصونة من عبث المحرفين. كان بنو إسحاق يعادون بني إسماعيل عداوة شديدة، وكان الكتاب في أيديهم أيام عصر الجهل لزمن طويل، والله تعالى أعلم كم أدخلوا فيه من التحريف. وبدون الذهاب بعيدا فإن نسخ التوراة المكتوبة في زمن النبي عزرا، وهو عصر التأريخ، تختلف بعضها عن

بعض اختلافا كبيرا. فهناك اختلافات بين نسخ اليهود ونسخ السامريين ونسخ النصارى. وعلى الرغم من أنهم متفقون في الأساس، ولكن بينهم اختلاف كبير. فإذا كان هذا هو الحال في عصر التدوين والتأريخ، فالله أعلم بما ارتكبه اليهود من التحريف في كتبهم قبل هذا العصر.

ولو أغمضنا النظر عن هذا العبث والتحريف، فإني أقول بأنه نظرا إلى ما يوجد إلى اليوم من أنباء في شأن إسماعيل يحق لنا القول بأن ما ورد في التوراة: "ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية" (تكوين ١٧: ٢٧).. إنما يعني أن بداية تحقيق هذا الوعد تكون بنسل إسحاق. وهذا هو ما حدث فعلا، إذ لم يزل هذا الوعد يتحقق لمدة طويلة عن طريق بني إسحاق، ثم نقله الله تعالى إلى بني إسماعيل.

أما السؤال عن سبب تحقيق الوعد ببني إسحاق أولا مع أنه الأخ الأصغر لإسماعيل.. فجوابه أنه كان مقدرا لنسل إسماعيل أن ينالوا النبوة التي لن تُنسخ أبدا، فلو تحقق هذا الوعد عن طريقهم أولا لحُرم بنو إسحاق من هذه النعمة تماما. وهكذا أعطى الله تعالى بني إسحاق نعمة النبوة لمدة، ثم بعث في بني إسماعيل نبيا كان خاتم النبيين الذي لن تَنسخ شريعته أية شريعة أخرى.. بل تبقى إلى يوم القيامة.

ومما يدل دلالة قطعية على أن بني إسماعيل كانوا شركاء في العهد الذي أوتيه إبراهيم في أولاده هو أنه كما كانت العلامة الظاهرية للعهد من جانب الناس هي الختان، كذلك كانت العلامة الظاهرية عليه من لدن الله تعالى هي إعطاء أرض كنعان.. فقد ورد: "وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدهم في أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا، وأكون إلههم. وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظون بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك.. يختن منكم كل ذكر فتختتنون في لحمِ غُرْلتِك، فيكون علامة عهد بيني وبينكم." (تكوين ١٧ :٧ -١١)

يتضح من هذا أن هذا العهد الإلهي كان له شقان ماديان: شق يتعلق بالله بأن يعطي ملك كنعان لنسل إبراهيم؛ وشق يتعلق بنسل إبراهيم وهو أن يختتنوا. ووفى الله عهده وأعطاهم أرض كنعان. ثم جاء زمن أخذ الله فيه أرض كنعان من اليهود وأعطاها للنصارى، ولما كان عيسى ابن مريم نبيا إسرائيليا فما زال العهد قائما بحاله، وبقيت أرض كنعان في قبضة نسل إبراهيم. ولكن بداية من وفاة النبي محمد ﷺ مباشرة وحتى سنة ١٩١٨م بقيت هذه الأرض تحت حكم المسلمين المنتميين إلى بني إسماعيل. فإذا كان بنو إسماعيل غير مشاركين في الوعد الإبراهيمي، ومع ذلك بقيت هذه الأرض في ملكهم لثلاثة عشر قرنا تقريبا.. أفلا يجرّنا هذا إلى القول بأن نبأ إبراهيم كان باطلا تماما؟ ولكن قوله تعالى لا يمكن أن يكون باطلا أبدا.. فثبت أن بني إسماعيل كانوا شركاء بني إسحاق على قدم المساواة في العهد الإبراهيمي.

ويجدر أن نتذكر بأنه إذا كانت الشهادة الواقعية الإلهية تثبت أن بني إسماعيل كانوا شركاء في العهد الإبراهيمي ولذلك بقيت كنعان تحت حكمهم تحقيقا لهذا الوعد الإلهي، فلا بد من التسليم أيضًا بأن الجانب الروحاني للعهد أي إعطاء النبوة من لدن الله تعالى واختتان القلب من قبل العبد، لا بد أن يتحقق في حق بني إسماعيل. وقد تم هذا فيهم في شخص الرسول محمد ﷺ. وإلا فقدِّموا لنا شخصا واحد من بني إسماعيل تحقق فيه هذا الوعد حسب النبأ.

التصديق الثاني

كان هذا التصديق لنبأ موسى عليه السلام الوارد في التوراة يقول: "أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك. وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى سيموت ذلك النبي" (تثنية ١٨: ١٨-٢٠).

يتضمن هذا النبأ الأمور التالية:

١. أنه سيقام نبي من بني إسماعيل، إخوة بني إسرائيل.

٢. سيكون هذا النبي مثيلا لموسى، أي صاحب شريعة، وتكون أحواله مشابهة لأحوال مثيله.

٣. سوف يجري كلام الله تعالى على لسانه، أي أن وحيه كله سيكون بكلمات إلهية، فلن يتلو أحكام الله تعالى بكلمات من عنده.

٤. سوف يبلّغ الناس كل لفظ من كلام الله غير متهيب ولا وَجِلٍ.

٥. سوف يتلو ما نزل عليه من وحي إلهي باسم الله تعالى. وسيكون هذا النبي حربا على الشرك.

٦. سوف يتعرض مكذبوه لعذاب الله تعالى.

٧. إذا ادعى أحد بالباطل أنه مصداق هذا النبأ الموسوي فإن الله تعالى مهلكه.

وتحقيقا لكل هذه الأمور الواردة في النبأ كان محمد رسول الله ﷺ متصفا بما يلي:

١.ظهر من بني إسماعيل إخوة بني إسحاق.

٢.أعلن أنه مثيل لموسى كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ (المزمل:١٦). فكان ﷺ مثل موسى صاحب شريعة، وكانت أحواله مشابهة إلى حد كبير بأحواله. فقد وعد مثلَ موسى بظهور المجددين في أمته ظهور متواترا. وكما كان عيسى بن مريم آخر خلفاء موسى عليهما السلام، كذلك وعد النبي ﷺ بظهور خليفة له على نفس الفترة الزمنية، وسماه مسيحا. وقد ظهر هذا المسيح الموعود فعلا في شخص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية وبعد نفس الفاصل الزمني.

٣.أعلن أن كلام الله تعالى يجري على لسانه، أي أن كلمات وحيه التي يتلوها على الناس هي عينها الكلمات التي تتنزل على قلبه وحيا من الله تعالى. اقرءوا كتب الأنبياء السابقين جميعًا تجدوا فيها كلام الله أقل من كلام البشر. وربما لا تجدون في الأناجيل كلها أكثر من جملتين من خالص كلام الله تعالى، أما الباقي فكله كلام المسيح وقصص كتّاب الأناجيل. والقرآن المجيد هو الكتاب الوحيد الذي لا تشوبه كلمة واحدة من كلام البشر، بل هو كلام الله تعالى من أوله إلى آخره.

فالمراد من عبارة "أجعل كلامي في فمه".. أن كلام الوحي الذي كان يترل على الأنبياء السابقين لم يكن كله وحيا لفظيا، وإنما كان يترل أكثره على قلوبهم معنى أو كانوا يرون كشوفا فيعبرون عنها بألفاظ من عندهم، ولكن هذا النبأ يذكر خصوصية للرسول ﷺ.. فهو لن يبين مراد الله تعالى بكلمات من عنده، وإنما يبلغ مراد الله تعالى بكلمات توحى منه عز وجل. كان الوحي الإلهي يترل على قلب الأنبياء السابقين، فإذا وصل إلى لساهم خرج بألفاظهم، أما الوحي القرآني النازل على قلب محمد رسول الله ﷺ فقد خرج من فمه كما نزل بلفظه ومعناه. وإلى ذلك تشير الآية القرآنية: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٤-٥).. أي أنه لا يقدم مشيئة الله تعالى في قالب ألفاظ من عنده، ولكن ينطق بوحي الله تعالى في قالب كلمات محددة أنزلها على قلبه ﷺ.

٤. أنه بلغ وحي الله تعالى غير هيّاب ولا وجل، وأبلغ الناس كل حرف منه. والقرآن نفسه خير شاهد على هذه الحقيقة. لقد واجه ﷺ معارضة شديدة، وأغراه الكفار بكل طريق ليحذف أو يخفف من الوحي القرآني ما يعيب به آلهتهم، ولكنه لم يبال بهم مطلقا، وبلغهم كلام الله تعالى كله، وفي صورته الأصلية. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الأمر في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود:١٣). أي يطمع مخالفوك أن يترل بك ضيق من ظلمهم فتترك شيئا مما أوحينا به إليك، أو ربما يضيق صدرك باعتراضهم عليك أنه لم يترل معه كتر أو ملك من السماء يؤيده.. فتترك شيئا من هذا الوحي.. ولكن هذا لن يحدث لأنك نذير، وكيف يخاف النذير ممن أخبره الله بهلاكهم.. والله تعالى وكيل على كل شيء، فكيف يخرج أحد من نطاق حكمه وسلطانه.

ولقد شهد النبي نفسه على هذا الأمر، وجعل الناس يشهدون معه أنه أبلغهم كل كلام الله تعالى. ففي حجة الوداع، عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(المائدة:٤).. قام بين الحجيج وذكّرهم بواجباتهم، ثم قال: اللهم هل بلغت؟ أي أيها الناس أستحلفكم بالله أن تشهدوا: هل أبلغت العالم كل ما أوحاه الله لي حق البلاغ؟ فقال الصحابة بلسان واحد: اللهم، نعم! فقال ﷺ: اللهم، فاشهد! (السيرة النبوية لابن هشام).

كما يمكن أن يكون المراد من هذا النبأ أن النبي الموعود كان من المقدر أن يكون خاتم النبيين، فاقتضى ذلك أن يبلغ الوحي الديني المترل عليه للناس بكامله لكي لا يبقى شيء من الدين ناقصا. أما الأنبياء السابقون فلم يكن حالهم هكذا.. فقد كانت تكشف عليهم أسرار من الدين، ولم يكن مسموحا لهم بكشف بعضها للناس لأن عقلية الناس في عصرهم لم تكن قادرة على استيعابها، وإن كان عقل النبي من الرقي بحيث يدركها. فنبأ التوراة بأن النبي الموعود يُبَلِّغ الناس كل ما يوحى إليه يعني أن العقل البشري في زمنه يكون قد اكتمل ونضج، ومن ثم يُعطى آخر الشرائع وأكملها.. التي تشمل كل الأسرار الروحانية، وسيؤمر بتعليمها كلها لأمته.. لأنهم أهل لتعلمها وإدراكها.

ونجد إشارة لهذا المعنى في الإنجيل حيث ورد قول المسيح بن مريم عليه السلام: "إن لي أمورا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به.." (يوحنا ١٦: ١٢- ١٣). تبين هذه العبارة أن المسيح لم يبلغ الناس كل ما أوحي إليه لأن فيه ما كان خاصا به، ولم تكن أمته قادرة على فهمه، ولكنه أخبرهم بأنه سيأتي بعده "روح الحق" فيخبر الناس بكل شيء لأنهم في وقته سيكونون قادرين على استيعابه. وكأن روح الحق هذا يكون على مقام "خاتم النبيين".

٤. وتحقق النبأ الوارد في عبارة "كلامي الذي يتكلم باسمي" بابتداء كل سورة من القرآن الكريم بآية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

٥. وأما النبأ الخاص بهلاك منكريه فقد تحقق للنبي محمد ﷺ تحققا اعترف به المخالفون أيضًا.. ومع أنهم يعزون هلاك أعدائه إلى أسباب دنيوية، ولكن الحق أن قولهم هذا خلاف للعقل والواقع.

٦. أما النبأ بأن الله مهلك كل من يدعي كاذبا أنه مصداق لهذا النبأ فقد تحقق هذا أروع تحقق.

فبالرغم من أن محمدا رسول الله ﷺ كان وحيدا، ولم يأل أعداؤه جهدا للقضاء عليه، إلا أنه خرج فائزا في كل موطن، ولم يصبه أحد بضرر.. ولا يمكن أن يكون هذا كله محض صدفة، وإنما أخبر الله تعالى رسوله بذلك من قبل وأمره أن يعلن على العالم: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٨). وعِصْمَتُه من المكائد والمؤامرات بصورة غير عادية لآية كانت وحدها سببا لاهتداء كثير من أعدائه. فمن أحداث التاريخ الشهيرة أن هند زوجة أبي سفيان عندما جاءت ضمن النساء للبيعة على الإسلام يوم فتح مكة، وكن يبايعن الرسول ﷺ على ألا يشركن بالله، فلم تملك هند نفسها من شدة الحماس وقالت: أبعد هذا كله نشرك بالله؟ وقد رأينا بأم أعيننا أنك كنت وحيدا وكنا نحن عصبة قوية، بذلنا كل ما في وسعنا للقضاء عليك فلم نفلح في ذلك. فلو كان في الأصنام قوة لقدرنا عليك، ولكننا هلكنا وخرجت فائزا.

فانظروا، إذا لم يظهر نبي كمثل موسى من بني إسماعيل بشريعة، وإذا لم يجعل الله كلامه في فمه، وإذا لم يبلغ الناس كلام الله، ولم يبلغهم جميع كلامه عز وجل، وإذا لم يهلك أعداؤه، وإذا لم يفز رغم قوة الأعداء وشدة معارضتهم.. فكيف كان من الممكن تحقق نبأ موسى، وكيف يتبين صدقه ؟ فالوحي النازل على رسول الله ﷺ برَّأ موسى عليه السلام من الكذب، وصدَّقه.

التصديق الثالث

هناك نبأ آخر لموسى عليه السلام يقول فيه: "جاء الرب مِن سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ مِن جبل فاران، وأتى مع عشرة آلاف قُدُّوسيٍّ✱ وعن يمينه نار شريعة لهم." (التثنية ٣٣: ١-٢).

يذكر هذا النبأ ثلاث آيات سماوية: الآية الأولى تخص التجلي الإلهي في سيناء، وهو إشارة إلى ظهور موسى عليه السلام، والثانية تخص التجلي الإلهي من سعير، وهو خبر بظهور عيسى ابن مريم عليه السلام من منطقة سعير، والثالثة تخص التجلي الإلهي من منطقة جبل فاران. وقد ذكر هذا التجلي الثالث بتفصيل أكثر من السابقين.. مما يدل على أن ذكر هذا التجلي هو المقصود الحقيقي هنا. فأولا يكون مقام هذا التجلي هو فاران.. وثانيا أنه يأتي بصحبة عشرة آلاف من القدوسيين.. وثالثا أن هذا الذي سيكون مظهرا للتجلي الإلهي سيكون في يمينه شريعة نارية. وهذه العلامات الثلاث بتمامها وكمالها متوفرة في شخص محمد رسول الله ﷺ. فعندما انتصر الرسول ﷺ على كفار مكة ودخلها حسب أنباء قرآنية واضحة، دخلها من جهة "فاران"، ووادي فاران هذا واقع بين مكة والمدينة. وعندما فتح مكة كان معه جيش من عشرة آلاف من أصحابه القدوسيين. كما أنه أتى الدنيا بشريعة نارية، تحرق بنار حب الله تعالى آثامَ الناس ومعاصيهم، وإنها لا تَعِد المؤمنين بنعم الله تعالى فقط، بل ينذر المكفرين والأشرار بعذاب النار.

فلو لم يظهر محمد رسول الله ﷺ، ولم يهاجر إلى المدينة المنورة، ولم ينصره ربه على أعدائه، ولم يمكِّنه من فتح مكة بصحبة عشرة آلاف من الصحابة القدوسيين، ولم تكن معه شريعة كاملة تبشر المؤمنين بالفلاح والازدهار، وتنذر أعداء الحق بعقاب النار.. فكيف يتحقق نبأ التوراة هذا؟ وكيف يصدُق وحيُ موسى؟ فكان الوحي النازل على رسول الله ﷺ محققا لهذا النبأ ومصدقا له.. طبقا لقوله تعالى: ﴿مصدقا لما معكم﴾.

✱ الكلمات التي تحتها الخط هي بحسب ما ورد في الطبعة الأردية، إذ قد حرّفوها في بعض الطبعات الحديثة حيث ترجموها في الطبعة العربية كالآتي: "وأتى من ربوات القدس". (الناشر)

التصديق الرابع

هناك إلهام لسليمان عليه السلام يقول: "حبيبي أبيض وأحمر. مُعْلَمٌ* بين ربوة. رأسه ذَهبٌ إبريزٌ. قُصصُه مسترسلة حالكة كالغراب. عيناه كالحمام على مجاري المياه مغسولتان باللبن، جالستان في وَقْبَيهما. خدّاه كخميلة الطّيب، وأتلام رياحين ذكية. شفتاه سوسن تقطران مرًّا مائعا. يداه حلقتان من ذهب مُرَصَّعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بطنه عاجٌ أبيض مغلف بالياقوت الأزرق. ساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز. طلعته كلُبنان. فتى كالأرز. حلقه حلاوة. وكله مشتهيات. هذا حبيبي وهذا خليلي، يا بنات أورشليم." (نشيد الإنشاد: ١٠- ١٦)

في هذا النبأ أخبر سليمان عليه السلام عن لون النبي ﷺ أنه أحمر أبيض. وهذا ما يثبته التاريخ. ثم صوَّر مشهدا لفتح مكة بأنه يرجع لبلده منتصرًا في صحبة عشرة آلاف من الناس، هم صحابته القدوسيون الوارد ذكرهم في نبأ (تثنية ٣٣: ٢). وفي آخر النبأ ذكر اسمه ﷺ: محمد. ولإخفاء هذا الاسم من النبأ قام مترجمو التوراة في العصر الحديث بتحريف كلمة "محمديم" الواردة في النبأ واستبدلوا بها كلمة "مشتهيات". ولكن الكلمات الأصلية في العبرية هي "محمديم"، وإضافة "يم" إلى كلمة "محمد" صيغة الاحترام في العبرية.. مثلما يفعلون مع كلمة "ألوه" أي الرب فيكتبونها "ألوهيم". فمعنى محمديم أي "محمد الموقر". ونتيجة لهذا الاسم الوارد في النبأ كان الناس شرعوا يسمون أولادهم باسم "محمد" عندما رأوا علامات قرب ظهور الموعود. فكان في المدينة عدة أشخاص سماهم آباؤهم محمدا ومنهم محمد بن أحيحة الصحابي"أسد الغابة".

فلقد حقق الوحي النازل على محمد رسول الله ﷺ هذا النبأ أيضًا، ولولا ذلك لصار نبأ سليمان باطلا.

التصديق الخامس

ورد في التوراة: "لمن يعلِّم معرفةً ولمن يُفهم تعليما. ألمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي؟ لأنه أمرٌ على أمرٍ، أمر على أمر، فرضٌ على فرض، فرضٌ على فرض. هنا قليل، هناك قليل. إنه بشفة لكناء، وبلسان آخر يكلِّم هذا الشعب، الذين قال لهم: هذه الراحة؛ أريحوا الرّازح، وهذا هو السكون. ولكن لم يشاءوا أن يسمعوا. فكان لهم قول الرب: أمرا على أمر، أمرا على أمر، فرضا على فرض، فرضا على فرض، هنا قليلا، هناك قليلا.. لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء وينكسروا ويُصادوا فيُؤخذوا" (إشعياء ٢٨: ٩إلى ١٣).

* مُعلم يعني مميز بارز أو قائد، وربوة تعني عشرة آلاف، والمُرّ طيب الرائحة طيب مفيد، وحلقه حلاوة يعني أن كل أقواله وأفعاله جميلة. الناشر

ويظهر من النبأ الأمور التالية:

أولا: أن كلام الله في زمن من الأزمان سوف ينزل لقوم حرموا من لبن الوحي، وفصلوا عن أمهم، أي من النبوة بعد أن كانت فيهم، وقد ظهر محمد رسول الله ﷺ في زمن كانت النبوة منقطعة لزمن طويل، وخاطب أيضًا بني إسرائيل المحرومين من لبن الوحي المفصولين عن ثدي النبوة. قال القرآن الكريم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة:٢٠). فقوله ﴿على فترة من الرسل﴾ تشير إلى ما جاء في النبأ: "للمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي".

ثانيا: الكلام الذي سوف ينزل لتلك الأمة لن ينزل دفعة واحدة، ولا في بلد واحد؛ بل يكون تَنَزُّله أمرا على أمر، وفرضا على فرض، هنا قليلا، وهناك قليلا. وهكذا بالضبط نزل القرآن المجيد شيئا فشيئا؛ بعضه في مكة وبعضه في المدينة وبعضه في الأسفار، حتى اعترض الكفار وقالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٣). ولا يزال نقاد النصارى يكررون نفس الاعتراض رغم وجود هذا النبأ في كتابهم سفر إشعياء، وبالتالي يقدمون بأقلامهم دليلا على أن محمدا رسول الله ﷺ كان مصداقا لهذا النبأ.

وثالثا: أن هذا الوحي سوف يتلى عليهم بلسان شخص عربي، وبلغة أجنبية أي عربية؛ ذلك لأنه وردت في بعض الترجمات، كالأردية مثلا، عبارة "بشفةٍ وحشيٍّ" بدلا من "شفةٍ لَكْناءَ". وكلمة وحشي تدل على العرب كما سبق أن ذكرنا أن الله تعالى عندما بشر السيدة هاجرَ بمولود إسماعيل عليهما السلام قال لها: "إنه يكون إنسان وحشيا" (تكوين ١٦: ١٢). وقد اختار كُتّاب التوراة هذه التسمية بسبب كراهيتهم لبني إسماعيل، وإلا فهي تعني عندهم إنسان عربيا. ومادة "ع ر ب" في اللغة العربية تعني البيان، والعرب يسمون عربا لأنهم كانوا يعيشون في الخيام، وكانوا مولعين بالأدب، ويتكلمون كلاما بليغا فصيحا، وكان أعداؤهم يسمون أهل الخيام والبداوة "وحشيين". وقد اختارت التوراة نفس الطريق، فكلما ذكرت إسماعيل سمته "وحشيا". وعندما ذكرت النبي المبعوث في أولاده وصفته بأنه سوف يتكلم بشفاه وحشي.. بدلا من القول بأنه من أولاد إسماعيل. والقرآن لسانه عربي وهو أمر معروف لا حاجة لذكره، ولكن إشارة لنبأ إشعياء هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١٣). لقد ذكرت هذه الآية القرآنية أن كون القرآن بلسان عربي تصديق للتوراة.. أي لنبأ التثنية ١٦: ١٢، ولنبأ التثنية ١٨:١٨.. حيث جاء أن وحي الشريعة لن ينزل في المستقبل على أحد من بني إسحاق، بل ينزل على إخوتهم بني إسماعيل. وكذلك تشير هذه الآية ضمنًا إلى نبأ إشعياء الذي نحن بصدده، والذي هو مزيد من التوضيح لنبأ موسى.

ورابعا: سيقول ذلك النبي الموعود لليهود إن دار إقامته هي دار أمن وراحة وسكون.. فأريحوا المتعَبين المجهَدين تجدوا الراحة والسكون.. ولكنهم لن يسمعوا لقوله ولن يدعوا ذلك المكان مكان أمن وسكينة، بل سوف يؤذون المجهدين المتعبين. وهذا أيضًا يصدق على الرسول محمد ﷺ، فإنه أعلن أنّ المدينة المنورة -حيث كان اليهود أيضًا يعيشون معه- دار أمن وحرمة مثل مكة المكرمة،كما عقد معاهدة اتفق فيها مع اليهود لإقرار الأمن فيها (السيرة الحلبية). ولكنهم لم يدعوا المتعَبين أي المهاجرين الذين تركوا أوطانهم وممتلكاتهم في مكة وجاءوا من سفر بعيد شاق.. ينعمون بالراحة هناك. وكانت النتيجة أن اليهود أنفسهم لم يجدوا الراحة فيها أيضًا.

خامسا: في النبأ أنه سيترل عليهم "أمر على أمر لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء وينكسروا ويصطادوا فيؤخذوا".. وقد تحقق في الرسول ﷺ تماما. فإن اليهود عندما دأبوا على حرمان المتعبين "المهاجرين" من الراحة كانت النتيجة أنهم أنفسهم راحوا وذهبوا.. أي أُجلي بعضهم من المدينة، وقُتل بعضهم، وهزموا وألقوا السلاح أمام الرسول ﷺ وصِيدوا وقيدوا، وأُخذ بعضهم عبيدًا.

ألا ما أشد هذا النبأ وضوحا وتحققا ببعث النبي محمد ﷺ! ولو لم يبعث نبينا محمد رسول الله ﷺ، و لم يترل عليه هذا الكتاب العربي المبين.. لم يتيسر تصديق نبأ إشعياء النبي وعُدَّ من الكاذبين.

التصديق السادس

قال النبي إشعياء: "يقول السيد الرب: هأنذا أؤسس في صهيون حجرَ امتحان حجر زاوية كريما أساسا مؤسسا. من آمن لا يهرب" (إشعياء ٢٨ :١٦).

وقال النبي داود: "الحجر الذي رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية. من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا" (مزامير ١١٨: ٢٢-٢٣). وقال أيضًا: "مبارك الآتي باسم الرب. باركناكم من بيت الرب " (مزامير ١١٨: ٢٦).

وكذلك هنالك إلهام في هذا الشأن للنبي دانيال يفيد أن الملك الفارسي نبوخذ نصر رأى حلما ولكنه نسيه، فذكر ذلك للمنجمين، ولكنهم اعتذروا عن قدرتهم على تفسير حلمٍ مَنسيٍّ، فأمر الملك بقتلهم. وكان النبي دانيال من أسرى السبي الذين أتى بهم الملك من أورشليم إلى بلده. فلما سمع بذلك ابتهل إلى الله تعالى ليخبره بحلم الملك وتعبيره، ففعل. ثم استأذن الملك ليدله على الحلم وتعبيره وقال له:

"أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم. هذا التمثال العظيم البهي جدا وقف قبالتك ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيد. صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نحاس. ساقاه من حديد. قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. كنت تنظر إلى أن قُطع حجرٌ بغير يدَيْن، فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس

والفضة والذهب معا، وصارت كعاصفة البيدر في الصيف، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها. هذا هو الحلم، فنخبر بتعبيره قُدّام الملك.

أنت أيها الملك، ملك ملوك، لأن إله السماوات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا. وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها لِيدك وسلَّطك عليها جميعها. فأنت هذا الرأس من ذهب. وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلَّط على كل الأرض، وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء. وكالحديد الذي يكسِّر تسحق وتكسِّر كل هؤلاء. وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد.. فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين. وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف.. فبعض المملكة يكون قويا والبعض قَصِمًا. وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبدا ومَلِكُها لا يُترْك لشعب آخر، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد. لأنك رأيت قد قُطع حجر من جبل لا بِيَدَيْن، فسحق الحديد والخزف والفضة والذهب. الله العظيم قد عرَّف الملك ما سيأتي بعد هذا. الحلم حقٌ وتعبيره يقين" (دانيال ٢: ٣١-٤٥).

يتبين من أنباء هؤلاء النبيين الثلاثة أنه كان من المقدر ظهور مَلِك روحاني يكون بمثابة حجر الزاوية أي يكون حلقة أخيرة من السلسة الروحانية، وسيكون ذلك الحجر ثمينا جدا وقويا، من آمن به كان وقورا جلدا صبورا، وهو حجر رفضه البناءون، ولسوف يسحق الملوك الشداد.. حجر لم تنحته يد إنسان.

وقد ذكر المسيح بن مريم هذا النبأ فقال: "اسمعوا مثلا آخر. كان إنسان رب بيت غرس كَرْما، وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة، وبنى برجا، وسلمه إلى كرامين وسافر. ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرّامون عبيده، وجلدوا بعضا، وقتلوا بعضا، ورجموا بعضا، ثم أرسل عبيدا آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك. فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا: يهابون ابني. وأما الكرّامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: ها هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ما يفعل بأولئك الكرّامين؟ قالوا له: أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديّا ويسلّم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع: أما قرأتم في الكتب: الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية. من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب

في أعيننا. لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطي لأمة تعمل أثماره. ومن يسقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه" (متّى ٢١: ٣٣ إلى ٤٤).

في هذه العبارة ضرب المسيح عليه السلام مثلا، وبيّن أن بني إسرائيل قد رفضوا أنبياء كثيرين. فأرسل الله تعالى نبيًّا سُمي ابن الله، أي المسيح نفسه، ولكن بني إسرائيل يرفضونه أيضًا، ويقتلونه، أي يحاولون قتله. فيرسل الله نبيًّا يُعَدُّ ظهورا وتجليًا لله تعالى.. ويكون حجر الزاوية، وعند مجيئه يُعاقَب بنو إسرائيل عقابا تاما، ويُسلّم ملكوت الله لقوم يعطون لله تعالى أثماره في وقتها.. أي يؤدون واجبات الله حق الأداء. ويكون ذلك الحجر من العظمة والشأن بحيث يسحق كل من يصطدم به، ويهلك كل من يقع عليه.

هذه الأنباء من أربعة أنبياء: داود، إشعياء، دانيال، والمسيح عليهم السلام.. تصدُق كلها على الرسول ﷺ بوضوح وجلاء تامّيْن.. بحيث لا ينكرها إلا من أعماه التعصب. كان ﷺ من بني إسماعيل، الذين رفضهم بنو إسحاق باستمرار، وحاولوا حرمانهم من البركات الإبراهيمية دائما. وقد أعلن النبي ﷺ بنفسه أنه حجر الزاوية فيقول: "مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله. فجعل الناس يطوفون به ويقولون: ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة. فكنت أنا تلك اللبنة" (مسلم، كتاب الفضائل). كان وجوده ﷺ بالغ القيمة، وكان أساسه متينًا، وكما أكدت الأحداث لم يزعزعه أحد من مكانه رغم معارضة شديدة امتدت ثلاث عشرة سنة، ولم يكن صحابته متعجلين قليلي الصبر كحواريي المسيح، بل كانوا ذوي وقار وثبات. إن حواريي المسيح تبرءوا منه وتخلوا عنه هاربين عندما ألقى جنود الرومان القبض عليه. (متى٢٦: ٥٦ و٧٠-٨٤)، لكن صحابة الرسول ﷺ قالوا له في أحلك الظروف: يا رسول الله، سنقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ولن يخلص إليك العدو إلا على جثثنا.

وقد ذكر القرآن الكريم شأنهم هذا فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاما﴾ (الفرقان: ٦٤). إن عباد الله المؤمنين بمحمد رسول الله ﷺ يمشون على الأرض بكل سكينة، ولا يتصرفون في أمورهم باستعجال. وعندما يتعرضون لسب من الجهال لا يردون السبّ بالسبّ غيظًا وغضبًا، بل يقولون لهم إنما نريد لكم السلام.

وكذلك وصفهم القرآن: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٣).. أي أنهم إذا مروا بأماكن اللهو واللعب لا يشتركون فيه ميلا إلى الملذات الدنيوية، كما فعلت أمة المسيح حين نسيت ذكر الله تعالى واشتغلت بالرقص والغناء والموسيقى. ولكن صحابة محمد ﷺ يملكون نفوسهم ويمرون معرضين عن المتع الدنيوية الفارغة إلى ما ينفعهم في أُخراهم التي لا تنقطع ثمارها.

وجاء في وصف حجر الزاوية هذا أن مجيئه يكون بمثابة قدوم الله تعالى، وأنه سيأتي باسم الله. وقد زاد المسيح عليه السلام هذا الأمر وضوحا عندما قال إن هذا القادم باسم الله سوف يجيء بعد من يُسمى ابن الله. فجاء محمد رسول الله ﷺ بعد المسيح، وكان قدومه بمثابة قدوم الله تعالى. وقد أشار القرآن إلى هذه الصفة للرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. (الفتح:١١)

وجملة "متى جاء صاحب الكرم"، التي تعني أن قدومه بمثابة قدوم الله تعالى، إشارةٌ إلى أنه سيكون مثيلا لموسى، إذ ورد في حق موسى أنه كان الرب، حيث جاء: "فقال الرب لموسى انظر: أنا جعلتك إلهًا لفرعون" (خروج: ٧: ١). فتمثيل قدوم هذا النبي الموعود بقدوم الله تعالى يعني أنه يأتي مثيلا لموسى. وبذلك أشار أيضًا إلى نبأ موسى الوارد في سفر التثنية ١٨:١٨.

ثم ذكر النبأ أن هذا الحجر يسحق من يسقط عليه، ومن سقط عليه يترضض.. وهذا ما حدث مع الرسول ﷺ.. فرغم فقره وضعفه الشديدين حاربه قومه فانتصر عليهم. لقد صوّر المسيح الناصري غزوات الرسول ﷺ أروع تصوير فقال: "من سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه".. أي أنه يهاجمه أعداؤه أولا فتلحقهم من جراء ذلك أضرار فادحة؛ ثم إذا كرّ هو عليهم قضى عليهم. وهذا ما حدث بالفعل، فلم يزل أعداؤه يهاجمون ويتضررون وينكسرون، ولما هاجمهم بدوره كسر شوكتهم تمامًا.

وقد أخبر النبي دانيال أن حروبه لن تكون ضد قومه فقط، بل سوف يشتبك مع حكومات قوية، وسيقضي عليها بيده. وبحسب هذا النبأ كانت حربه مع قيصر الروم الذي قضى المسلمون على إمبراطوريته.

وقد أشار النبي دانيال إلى دين هذه الإمبراطورية فقال: "وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس، ولكن لا يتلاصق هذا بذاك، كما أن الحديد لا يختلط بالخزف" (دانيال ٢: ٤٣). وفي هذا إشارة إلى أن أهل تلك الإمبراطورية يحاولون الانتساب إلى دين لا حقّ لهم في الدخول فيه. فعبارة " يختلطون بنسل الناس "لا تعني أنهم ليسوا أناسا كسائر الناس، وإنما المعنى أنهم سيحاولون إلحاق أنفسهم بابن الإنسان.. أي المسيح عيسى، ولكن دعواهم هذه باطلة لأن ابن الإنسان هذا لم يأت إلا "لخراف بني إسرائيل الضالة" فقط، ولا إذْنَ هناك للأقوام الأخرى بالدخول في دينه. يقول المسيح نفسه: "لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متى ١٥: ٢٤). وعندما بعث الحواريين مبشرين أمرهم بقوله: "إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا" (متى١٠ :٥). فالرومان الذين ادعوا بكونهم من أهل المسيحية.. مَثَلُهم كَمَثَل الذي ينسب نفسه إلى نسل لا حق له في الانتساب إليه.

وأما ما قلته بأن المراد من "نسل الناس" أو بعبارة أخرى "ابن الإنسان" هو المسيح، فدليله أن هذا الاسم يتردد كثيرا في صفحات الإنجيل.. منها على سبيل المثال: "لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر من المغارب هكذا يكون أيضًا مجيء ابن الإنسان" (متى ٢٤: ٢٧).

ثم إن وصف هذا الحجر أنه "قُطع من جبل و لم تقطعه أو تنحته يد إنسان" يشير إلى أن هذا النبي الموعود سيكون أمّيًّا لم يتعلم على يد بشر. وكان الرسول ﷺ أمّيًّا بالفعل، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النبأ في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالأِنْجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٨). تعلن هذه الآية أن التوراة والإنجيل وَصَفا محمدا رسول الله بثلاثة أسماء: رسول، نبي، أمّيّ. وكما ذكرنا فإن التوراة تصفه بأنه حجر لم تنحته يد إنسان، وقد صدق الإنجيل هذا النبأ، وكأنه أخبر بذلك أن النبي ﷺ يكون أمّيًّا غير متعلم على يد بشر.

ولقد حاول البعض لجهلهم تطبيق هذا النبأ على المسيح ابن مريم، ولكنهم لا يدركون أن المسيح لم يكن أمّيًّا غير متعلم، بل كان له معلمون من البشر.. فقد ورد: "حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه" (متى ٣: ١٣). وجاء أيضًا: "فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء" (متى ٣: ١٦). وهذا يدل على أن المسيح احتاج للتتلمذ على يد النبي يحيى لينال تعليما روحانيا. فلا يمكن والحال هذه أن يسمى أمّيًّا. ثم إنه لم يوصف بكونه "من سقط عليه يترضض، ومن يسقط هو عليه يسحقه"، بل بالعكس سقط عليه الناس وآذوه إيذاء شديدا، و لم يتيسر له السقوط على الآخرين.

والآن، لو لم تتحقق هذه الأنباء بوجود النبي ﷺ لعدّ كل من داود وإشعياء ودانيال والمسيح عليهم السلام من الكاذبين. فالقرآن الكريم صدق كلام هؤلاء الأنبياء جميعا بتحقق تلك الأنباء.

التصديق السابع

جاء في الإنجيل؛ "فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب، ويرسل يسوع المسيح المبشر به لكم من قبل. الذي ينبغي أن السماء تقبله إلى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شيء، التي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللهُ بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِين مُنْذُ الدّهر، فإن موسى قال للآباء: إن نبيًّا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون في كل ما يكلمكم به. ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تُباد من الشعب. وجميع الأنبياء أيضًا من صموئيل فما بعده جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبئوا بهذه الأيام. أنتم أبناءُ الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلا لإبراهيم: وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض.. إليكم أولا إذ أقام الله فتاه يسوع أرسله يبارككم بردِّ كل واحد منكم عن شروره" (أعمال ٣ :١٩-٢٦).

ورد هذا النبأ في سفر أعمال الرسل، ولكن لا بد أن يكون المسيح نفسه قد تنبأ به، لأن الحواريين كانوا ينقلون أقواله، ويعتقد النصارى أن كل ما قاله الحواريون قالوه تحت تأثير روحي للمسيح، لأجل

ذلك أعطوا الأعمال وأقوال الحواريين مكانا في كتبهم المقدسة، واعتبروها أسفارا من الكتاب المقدس، وعلاوة على ذلك فإن المسيح قد أخبر بهذا النبأ بكلمات أخرى ذكرناها في "التصديق السادس" آنفا. ومن ثم فبوُسعنا الجزم بأن هذا النبأ الوارد في سفر الأعمال هو من أقوال المسيح نفسه. ولقد ورد في هذا النبأ ما يلي من أمور:

١. لن يترل المسيح مرة أخرى إلى الدنيا ما لم يتحقق ما أنبأ به موسى بأن الله تعالى سوف يبعث نبيًّا مثله من إخوة بني إسرائيل.

٢. لقد أنبأ بمجيء هذا الموعود أيضًا كل الأنبياء من بعد موسى بدءا من النبي صموئيل.

٣. كان مجيء المسيح بمثابة بشارة بمجيء ذلك النبي الموعود.. لأنه قال: لقد أرسل الله فتاه يسوع أولا ليرد كل واحد منهم عن شروره. ولقد أثبتُّ فيما سبق أن النبي المثيل لموسى، أو بتعبير الإنجيل "ذلك النبي"، كان نبينا محمد ﷺ. فهذا النبأ الذي يقول ببقاء المسيح في السماء إلى "أزمنة ردِّ كل شيء" أي إلى أن تتحقق كل الأنباء، وخاصة نبأ ظهور مثيل لموسى عليه السلام.. فيه بشارة ببعث نبينا محمد ﷺ. كما ذُكر فيه أن البعث الأول للمسيح الناصري كان تمهيدا لمجيء ذلك النبي الموعود، لكي يطهر قلوب الناس من الشرور، ويزيل عنهم ما غلب على قلوب اليهود من جفاء وتحجر.. فيتمكنوا من الإيمان به عند مبعثه. وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله:

﴿لَتجدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذينَ أَشْرَكُوا وَلَتجدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلكَ بِأَنَّ منْهُمْ قسِّيسينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ*وَإِذَا سَمعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفيضُ منَ الدَّمْعِ ممَّا عَرَفُوا منَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهدينَ﴾ (المائدة: ٨٣ -٨٤). فالقرآن أيضًا يصدق بأن المسيح جاء قبل النبي محمد ﷺ بحسب هذا النبأ، وطهّر قلوب الكثيرين من الشر، وباركهم حتى صاروا أهلا لتصديق النبي المثيل لموسى.

فجاء نبينا محمد ﷺ تحقيقا لهذا النبأ، وهكذا صار مصدِّقا للمسيح والأنبياء الآخرين منذ صموئيل. ولو لم يأت لعُدَّ جميعهم من الكاذبين.

وكثيرة هي الأنباء التي تحققت في شخص الرسول ﷺ، وكان مصدِّقا لكلام كثير من الأنبياء السابقين، ولكنني أكتفي بهذا القدر من الأمثلة هنا، التي يدرك بها كل منصف خال من التعصب مدى صدق القرآن الكريم في قوله لبني إسرائيل: ﴿آمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾. لقد حقق القرآن أنباء كتب بني إسرائيل، فمن أنكره منهم وكفر به.. فإنما يكفر بكتبه التي أنبأت بتروله.

لقد أساء بعض كتَّاب النصارى فهم هذه الآية، فظنوا أنها إعلان من القرآن بأنه يصدق كل ما جاء في كتبهم. وبناء على هذا الفهم الخاطئ يعترضون قائلين بأنه ما دام كتابهم المقدس صحيحا بحسب اعتراف القرآن.. فقد ثبت بذلك بطلان القرآن، لأن مضامينه تخالف الكتاب المقدس.

لا أفهم أبدا هذه العقلية القائلة أن زيدا يصدق بكرا.. فلا بد أن يكون زيدٌ على الباطل! أهكذا يكون جزاء الإحسان؟! وكما ذكرت من قبل، فإن هذه الآية لا تعني أبدا ما حاول القساوسة استنتاجه منها. لقد انخدعوا بكلمة ﴿مصدقا﴾ مع أن التصديق له مدلولان: الأول نسبة الصدق إلى القائل، والثاني: تحقيق نبأ سابق.. أي أن يكون مطابقا ومصدقا لما قيل. والمعنى الثاني هو المراد ها هنا.

يقول القرآن المجيد في موضع آخر: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ٨٢،٨٣). ويتبين من هذا أن القرآن يقول إن جميع الأنبياء أخبروا بمجيء نبي يصدِّق وَحْيَهم جميعًا.. ويكون الإيمان به ضروريا لكل الأمم. ونقرأ في القرآن أنه يقول عن الأنبياء: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٥)، ويقول أيضًا: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(فاطر:٣٢). إذا قرنَّا هاتين الآيتين مع الآية السابقة وصلنا إلى نتيجة أن الأنبياء بُعثوا في كل قطر وفي كل شعب؛ وأن النبي الموعود في هذه الآية يُصدِّق كتاب كل نبي وأنه يجب أن يؤمن به أتباع كل نبي، أو بعبارة أخرى إن تصديق القرآن الكريم للتوراة والإنجيل هو كتصديقه للكتب الأخرى مثل "الفيد" و"الزندأفستا" وسائر كتب الأنبياء حيثما بُعثوا في أقطار الأرض. ولكننا نرى أن هذه الكتب كلها في شكلها الحالي تختلف أشد الاختلاف فيما بينها. ولو قبلنا بصحتها وهي في شكلها الحالي، مع كونها يكذب بعضها بعضا.. لانهار صرح الدين وما بقي منه شيء. ولو سميناها كتب الله بصورتها الحالية فكأننا بأنفسنا نكذب هؤلاء الأنبياء الذين تُنسب إليهم هذه الكتب. وعلى سبيل المثال: هل يمكن القول بأن كل التوراة في شكلها الحالي هي الوحي الذي نزل على سيدنا موسى عليه السلام.. مع أنها تقول: "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم.. ويشوع بن نون كان قد امتلأ روحَ حكمةٍ إذ وضع موسى عليه يديه. فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوحى الربُّ موسى. ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه" (تثنية ٣٤ :٥: ٦: ٩: ١٠).

يتضح من هذه الفقرات جليًّا أنها كتبت بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام بفترة طويلة، بل في وقت انمحى فيه أثر قبره وبعد مجيء كثير من الأنبياء، لأن العبارة تقول: "ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل

موسى". فهل من عاقل يسلم بأن موسى عليه السلام عاد إلى الدنيا بعد وفاته بمئات السنين وأضاف هذه العبارة إلى كتابه؟ وإذا كان الأمر غير ذلك فالواقع أن يدًا أخرى أضافتها إلى كتاب موسى بعد قرون من وفاته. ومن يدري ماذا أضيف غير ذلك؟ فأيَّ الفقرات يصدقها القرآن وأيّها لا يصدق؟ وكيف نميّز – مِن هذا الكتاب المحرَّف والذي يعترف علماء الكتاب المقدس أنه أُلِّف بأيد كثيرة وفي أزمنة مختلفة – بين كلام الله حتى نصدقه، وبين كلام البشر حتى نرفضه؟

وورد في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين: "الحقّ أقول لكم إن مِن القيام ها هنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا في ملكوته" (متى ١٦: ٢٨)، ولكن الواقع أن كلهم ماتوا، وماتت بعدهم أجيال وأجيال.. وإلى الآن لم ير أحد منهم ابن الإنسان آتيا في ملكوته بحسب اعتقادهم ولو قيل إن المراد بمجيء المسيح ازدهار قومه.. فهذا تأويل خاطئ أيضًا، لأن النصارى نالوا الازدهار والرقي بعد حادثة الصليب بثلاثة قرون، ولم يكن عندئذ أحد حيًّا ممن عاصر المسيح. فليخبرنا القساوسة المحترمون الذين يقولون بأن المراد بالتصديق هو صحة كتبهم.. كيف يمكن للقرآن أن يصدق هذه الأمور؟

تعتقد النصارى أن الأناجيل تتضمن مسألة ألوهية المسيح والأقانيم الثلاثة، ولكن القرآن يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤). تبين هذه الآية وكثير مثلها، أن القرآن لا يصدِّق أبدا ذلك الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم؛ بل إن القرآن لا يصدق مطلقا ذلك المفهوم الذي يقدمه النصارى للإنجيل بعد كل ما ذكرنا. فماذا يغني النصارى هذا التأويل لمعنى التصديق؟

الحق أن تصديق الناس يتم بطريقين: إما أن نقول للمرء أنك صادق فيما تقول، أو نثبت صدق قول قاله، وهذا يكون باللسان أو بالفعل.. فمثلا نقول باللسان: فلان صادق فيما يقول. وأما بالفعل فمثاله أن يقول زيد عن عمرو إنه سيسافر إلى بلد ما، فإذا سافر عمرو فإنه بفعله صدّق زيدا. ولكن تصديق الكتب السماوية يكون بثلاثة طرق:

١. القول بأن الكتاب كله حق،

٢. القول بأن بعض أجزائه حق،

٣. القول بأنه في أصل بدايته كان حقا. أي أنه في البداية نزل من الله تعالى، ومن جاء به كان صادقا، ولكن الناس حرفوه فيما بعد.

لقد أثبتُ من قبل أن التصديق التام للكتب السابقة محالٌ، كما لا يليق بالقرآن أن يفعل هذا.. إنه محال لأن الموجود منها اليوم قليل معدوم، ولا يليق بالقرآن تصديقها لأنه يبين أخطاءها فلا يمكن أن يصدقها تماما. فلم يبق إلا طريقان للتصديق: التصديق ببعض أجزائها، أو التصديق بحالتها الابتدائية، والقرآن

يصدق الكتب الموجودة بهذين الطريقين: أي أولا يصدق بعض ما فيها من مسائل، ويثبت صدق بعض ما ورد فيها من أنباء بتحقيقها في وجوده؛ ثانيا: يعلن أن كل الكتب السماوية كانت صحيحة تماما عندما نزلت للعالم أول الأمر، فيعلن صدق الوحي الذي نزل على آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وكرشنا ورام و زرادشت وغيرهم من أنبياء الله تعالى الذين بعثوا بين وقت وآخر وفي أقطار مختلفة من الدنيا وإلى أقوام شتى.. سواء عرفنا أسماءهم أم لا.

يقول القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر: ٧٩).

وتبين هذه الآية أن الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم ليسوا وحدهم الأنبياء؛ وإنما هناك أيضًا أنبياء آخرون بعثهم الله تعالى.

ثم أثار القرآن سؤالاً: كيف نعرف صِدْق مَن لم يرد اسمه فيه من الأنبياء؟ وقد بين علامة صدقهم بأنهم يأتون بالآيات، ولا يمكن لأحد أن يأتي بالآيات بدون إذن الله ومعونته تعالى، فمن أتى منهم بآية فهو نبي صادق يقيناً.

ثم إن كثيرًا من الآيات تتطلب شهود عيان وعلمًا تفصيليًّا للواقعات.. ولا علم لنا بالأحوال التفصيلية للكثير من الأنبياء المعتبرين عند بعض الأمم؛ فكيف نعرف صدقهم؟ أجاب القرآن على ذلك بأن هناك آية مشتركة بين جميع الأنبياء.. ولا بد أن أقوامهم قد شهدوها فعلاً.. تلك هي هلاك مكذبي النبي وبقاء اسمه في الدنيا وغلبة أتباعه. فإذا رأيتم هذه الآية لأي مدع للوحي فاستيقنوا أن الله تعالى معه وليس كاذباً.

ويتضح من هذه الآية أن القرآن لا يصدق الأنبياء المذكورين فيه فقط، وإنما يصدق أيضًا مَن لم يذكر أسماءهم. وإذا كان مصدقًا لهؤلاء فهو مصدق لوحيهم أيضًا. ولا يكون التصديق لهذا الوحي الغائب إلا أن نؤمن بصدقه إيمانًا إجماليًّا. فيكون المعنى الآخر للتصديق هو الإيمان الإجمالي.. أي أن وحيهم كان من الله تعالى. وبمثل هذا التصديق نفسه يصدق القرآن الكريم كتب اليهود والنصارى. فالظلم الفادح إذن أن يستنتج أحدٌ من قوله تعالى: ﴿مصدقًا لما معكم﴾ أن القرآن يعلن بذلك صحة كتبهم في صورتها الراهنة. هذا، وإن الآيات الأخرى من القرآن، والواقعات، والشهادات الداخلية لكتبهم تبطل هذا الزعم.

وهناك لطيفة أخرى جديرة بالذكر.. فقوله تعالى ﴿مصدقا لما معكم﴾ لا يذكر أنه مصدقٌ للتوراة والإنجيل، بل يقول ﴿لما معكم﴾. والآن، لو فهمنا عبارة ﴿لما معكم﴾ بمعناها الواسع لكان مدلولها أن القرآن يصدّق قصصهم وأساطيرهم أيضًا، ولكن هذا باطل بالبداهة. فلا بدّ أن يقيد مدلولها بقيود

معقولة. فمثلا نقول أولا، إنه مصدقٌ لما ورد في كتبهم عن مسألة معينة.. أي أن التعاليم التي يقدمها القرآن في مسألة معينة هي نفس التعاليم الموجودة في كتبكم. فكأن التصديق صار خاصًّا غير مطلق. وبهذا المفهوم نفسه فسّرت قوله تعالى: ﴿مصدقا لما معكم﴾، وقلت إن القرآن الكريم يصدق الأنباء الواردة في كتبكم..أي يحققها بوجوده.

ويكون المعنى الآخر ﴿لما معكم﴾ بأن القرآن يصدق ﴿لما معكم من وحي الله الخالص﴾. ولا يصح الاعتراض على هذا المعنى. فأي شك في أن مِن واجب كل وحي سماوي أن يصدِّق ما في الكتب السابقة من كلام إلهي خالص. ولكن هذا التصديق لا يعني أبدا أن كل ما في كتبهم هو بالضرورة وحي الله تعالى.

وهناك أمر يستحق الاهتمام، وذلك أنه كلما ورد في القرآن الكريم التصديق للكتب السابقة استعملت صلة "اللام"، فيما عدا موضعين. أما عند التصديق للقرآن نفسه والرسول ﷺ فقد استعملت صلة "الباء". ومن المعروف في اللغة أن حرف الباء كصلة لفعل ﴿صدّق﴾ يفيد معنى اعتبار الشيء حقًّا. هذا الاختلاف في استخدام الحروف يؤكد أن التصديق للكتب السابقة له معنى آخر؛ وهو أن القرآن بوجوده يحقق ما فيها من أنباء، وليس أنه يعتبرها صحيحة جملة وتفصيلا بما فيها من غث وسمين.

إن بعض الآيات القرآنية تؤكد هذا الاستدلال أيضًا، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف: ١١إلى ١٣).

إن الخطاب في الآيات السابقة لهذه الآية موجه إلى كفار مكة لا اليهود، حيث قيل لهم إن موسى عليه السلام قد شهد وأخبر بمجيء نبي مثيل له يبعث من بني إسماعيل. أليس غريبا أن يؤمن به موسى وهو من بني إسرائيل (بني إسحاق)، بينما تستكبرون عن الإيمان به مع أنه نبي منكم وبعثته تشريف لقومكم بني إسماعيل؟

ثم ذكر اعتراضا للكفار بأنهم رفضوه لكذبه، ودليلهم على كذبه أنه لم يسبقهم إلى الإيمان به سوى أراذل القوم، أما عِلْيتهم فهم معارضون له، ولو كان صادقا لكانوا السباقين إلى الإيمان به. فردّ على هذا الاعتراض بقوله: إن كتاب موسى سابق للقرآن وقد تأكد صدقه بما فيه من الهداية والنفع. وفي كتابه أنباء يحققها وحي القرآن، ومن تلك الأنباء أن الكتاب الذي يأتي بعد موسى يكون لسانه لسانا عربيا،

وأن قومه سوف يعارضونه. فإذا كان هذا القرآن يحقق تلك الأنباء الصادرة قبل مئات السنين.. فلماذا ترفضونه؟

ونبأ مجيء الشريعة القادمة بلسان عربي موجود في سفر تثنية من (التوراة ١٨: ١٨).. حيث ورد أن النبي الموعود يبعث من إخوة بني إسرائيل أي من بني إسماعيل العرب. ونبأ معارضة قومه له وارد في سفر تثنية "٣٣: ٢".. حيث قيل إنه سيأتي في صحبة عشرة آلاف من القدوسيين، وأن في يده اليمنى نار شريعة.. بمعنى أنه عند الضرورة يأذن بالقتال ويحارب. والواضح أن الإنسان يضطر للحرب عندما يواجه معارضة من قوم أولي قوة ونفوذ. فقول قريش بأنهم عِلية القوم فلا يؤمنون ليس دليلا على صدقهم، بل هو دليل على صدق القرآن والنبي ﷺ.. لأنهم بقولهم هذا يحققون جانبًا من نبأ موسى. فإذا كان هذا الأمر تصديقا لمحمد رسول الله ﷺ من جهة، فهو من جهة أخرى يبين أيضًا صدق موسى عليه السلام.

تبين هذه الآية من سورة الأحقاف معنى التصديق بجلاء ووضوح.. إذ إن التصديق باللسان والقول بأن التوراة حق لم يكن حجة تقنع الكفار.. إذ كانوا يعتبرون القرآن والتوراة كليهما باطلا، وإنما يكون التصديق حجة عليهم إذا كان يمثل تحقيقا لنبأ من التوراة. فالنبأ من أي نبي يكون حجة على كل إنسان لأنه يشتمل على خبر من الغيب. إذًا، فلا يكون معنى التصديق هنا إلا تحقيق نبأ ما. وهذا هو المعنى لقوله تعالى ﴿مصدقا لما معكم﴾ وللآيات المماثلة له.

وقوله تعالى: ﴿و لا تكونوا أول كافر﴾ يتضمن مسألة لغوية تحتاج إلى توضيح. فقد جاءت عبارة ﴿لا تكونوا﴾ بصيغة الجمع، وعبارة ﴿أول كافر﴾ بصيغة المفرد. وقد أجاب علماء اللغة على هذه المسألة بعدة أجوبة منها:

إن صيغة أفعل التفضيل إذا كانت مضافة إلى صفة نكرة يجوز أن تأتي هذه الصفة مفردا أو جمعا. وشاهده في الاستعمالين هو قول الشاعر:

وإذا هُمُ طَعِمٌ فأَلأَمُ طاعمٍ   وإذا هُمُ جاعوا فَشرُّ جِياع

وقال بعضهم: إن تقدير الكلام: لا تكونوا أولَّ فريقٍ كافرٍ به.

وقال آخرون: إن تقديره: لا تكونوا كلُّ واحد منكم أوّلَ كافر به.

وقال سيبويه: إن تقديره: لا تكونوا أوّلَ كافرين به (البحر المحيط، والزمخشري).

وقال غيرهم: لا تكونوا أولَّ كافر به، ولا تكونوا آخرَ كافر به.. أي لا تتعجلوا في الكفر ولا تكفروا فيما بعد، وشاهده:

من أناس ليس في أخلاقهم   عاجلُ الفحش ولا سوءُ جَزَعْ

(البحر المحيط)

وأرى أنه يمكن تفسير هذا بطريق آخر أيضًا. فما دام هذا الكتاب مصدقا لأنباء كتبكم فيعتبر كفركم به أول درجات الكفر.. إذ يمكن أن تلمس العذر للجاهلين، ولكنكم لا عذر لكم. ولا يدل هذا على أن الكفر الأدنى درجة أو الكفر في وقت لاحق جائز؛ ولكن المراد أن الكفر به لا يجوز بأي حال منكم، فكفركم هو من الدرجة الأولى أي أشده وأخطره، ويوقفكم في مقدمة الكفار. ونجد نظير هذا الأسلوب في موضع آخر من القرآن حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق:٣٠)، ولا يراد من صيغة المبالغة "ظلام" أن الله تعالى لا يبالغ في الظلم، ولكنه، وحاشا له، يظلم ظلما قليلا.. وإنما المراد أنه على فرض التسليم بما ذُكر من أمور في الآيات السابقة يبدو ظالما كبيرا، ولكنه سبحانه ليس كذلك.

وضمير الغائب في قوله تعالى ﴿كافر به﴾ يمكن أن يرجع إلى قوله ﴿بما أنزلت﴾، فيكون المعنى: لا تكونوا كافرين بما أنزلت من وحي جديد.. أي القرآن الكريم. كما يمكن أن يرجع الضمير إلى قوله ﴿لما معكم﴾ فيكون المعنى: إن هذا القرآن يحقق أنباء كتبكم فإذا كفر بها غيركم فليكفر، ولكنكم لماذا تتعجلون تكذيب كتبكم أنفسكم.

قوله تعالى: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا﴾. من العجيب، بل من سوء حظ المسلمين أنه يوجد بينهم مَن يبيع المصاحف بثمن غال، أو مَن يقرأ القرآن في المناسبات ويتقاضى أجرًا.. وحجته هذه الآية، مع أن مضمونها لا يمتّ إلى "بثمن قليل" من قريب ولا من بعيد. والشراء هنا ليس بمعناه المعروف، وإنما بمعنى الاستبدال. فقد جاء في اللغة أن كل من ترك شيئا وتمسك بغيره فقد اشتراه. ومعنى الآية ألا تتركوا آياتي لتختاروا المتاع القليل. والمتاع القليل بحسب القرآن هو الدنيا؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيلٌ﴾(النساء: ٧٨). فالمراد ألا تؤثروا الدنيا على الدين.

و في الآية زجر لبني إسرائيل بأنكم ترفضون رسالة محمد ﷺ مع أن كتبكم تخبركم عن مجيئه، وما ذلك إلا خشية ضياع زعامتكم ومركزكم الدنيوي. إن نيل القرب الإلهي بطاعة محمد رسول الله ﷺ يشق عليكم، أما الحفاظ على زعامتكم القومية بمعارضته أعزّ عليكم.. فكأنكم ترمون أنباء كتبكم وراء ظهوركم من أجل العزة الدنيوية والمتاع القليل.

ورد في الحديث النبوي أن عالمين يهوديين لقيا النبي ﷺ ، فقالا فيما بينهما: هذا هو النبي المذكور مجيئه في كتبنا، ولكننا لن نقبله وإلا قتلنا قومنا "مسند أحمد ابن حنبل". هذه هي العقلية التي تحرم الكثيرين من قبول الحق.

وقوله تعالى: ﴿وإياي فاتقون﴾ يشير إلى أن الإنسان يؤثر الدنيا على الدين لأنه يخاف مصاعب الحياة، ولكن هذا الخوف عبث لأن الراحة والتعب من الله. وراحة الدنيا ينالها الإنسان بإرضاء ربه لا بدون ذلك.